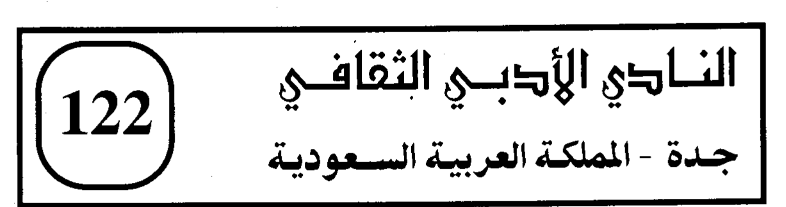
الدكتور محمد العيد الخطراوي

محمد عالم أفغاني
من
رواد: المقالة - الترجمة - القصة
في
المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى

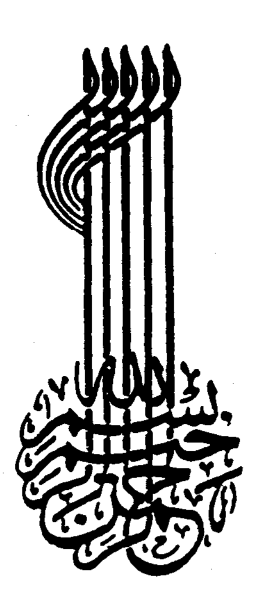
شعبان 1423هـ - أكتوبر 2002



ح النادي الأدبي بجدة - ١٤٢٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الخطراوي- محمد العيد
محمد عالم أفغاني من رواد المقالة والترجمة والقصة في المملكة العربية السعودية.- جدة.
٢٦٩ ص، ٢٠ سم
ردمك: ٨-٣٥-٧٥٧-٩٩٦٠
١-أفغاني، محمد عالم ٢- الأدباء السعوديون أ- العنوان
ديوي ٩٢٨.١٥٣١ ٢٣/٣٢٩٢

رقم الإيداع: ٢٣/٣٢٩٢
ردمك: ٨-٣٥-٧٥٧-٩٩٦٠

الطبعة الأولى





تقديم

أدركت في وقت مبكر أن البيئة المدينية قد أسهمت بتقديم مجموعة من القصاصين الرواد الأوائل، منهم: عبد القدوس الأنصاري، وأحمد رضا حوحو، ومحمد عالم أفغاني، وأمين مدني، وأحمد بشناق، وعبد السلام هاشم حافظ، وغالب أبو الفرج، ومحمود مشهدي، ومحمد سعيد دفتردار وغيرهم.

كما أسهمت في تقديم قصاصين من الشباب المتوثب بقصصه إلى ساحات التجديد والتجريب، ورث مجد السابقين، وقفز إلى الصفوف الأولى من المحاولات الشبابية التطويرية، منهم: علي محمد حسون، وحسين علي حسين، ووفاء الطيب، وبثينة إدريس، وصالحة سروجي، وحكيمة الحربي، وغيرهم.

أما في القصص الشعري، فقد وجدناها لدى عمر عادل، حين كان يعمل بمدرسة العلوم الشرعية، في حوارية شعرية

تجري بين جاهل ومتعلم، وفي المفاخرة بين القطار والباخرة عند الأسكوبي، وحديثاً عند كاتب هذه السطور (محمد العيد الخطراوي) في آخر ديوانه (غناء الجرح) بعنوان (الوداع الدامي)..

فعزمت على أمرين أسأل الله أن يعينني عليهما، وهما:

1 - أن أصنع معجما لهؤلاء القصاصين.
2 - أن أقدم بعضهم والرواد منهم بالذات في كتب مستقلة تلقي الضوء على مدى إسهامهم في بناء كيان هذا الفن الأدبي ببلادنا الحبيبة، ونكشف عن جهودهم في مجالات أدبية أخرى.

وها أنا أقدم اليوم إليكم الأديب القاص، المترجم، وكاتب المقال والدراسة الأدبية/ محمد عالم أفغاني، وسأعقبه إن شاء الله بكتاب آخر عن الشاعر الباحث، والمؤرخ القاص/ محمد سعيد دفتردار.

وإنني أعلم مسبقا أنني لم أتعمق دراسة الأفغاني، ولا تتبعت خصائصه الفنية فيما كتب، ولكنني أعلم في الوقت نفسه أنه يقدم لأول مرة على النحو الذي قدمته به، وأنني حاولت أن أضعه في مكانه الصحيح من خريطة مسيرة نهضتنا الأدبية المعاصرة، وهو أمر أخذ مني جهدا أحمد الله عليه، ولعل غيري يتولى دراسته بشكل أفضل بعد أن وفرت عليه مشوار جمع النصوص.

هذا وقد تناوله بعض من أرخوا لحركة القصة القصيرة المحلية كالدكتور منصور الحازمي، والدكتور محمد عبدالرحمن الشامخ ، وقد أوردت ما كتبه الشامخ عن قصته (عودة سعيد) كاملاً، لأعطي القارئ تصورا أفضل، والله ولي التوفيق..

1423/3/1هـ

د. محمد العيد الخطراوي



إضـــاءة

هو محمد عالم بن محمد أكرم الأفغاني، استقرت أسرته في أربعينات القرن الرابع عشر الهجري (أي ألف وثلاثمائة وكذا وثلاثين هجرية)، والتحق طالبا بمدرسة النجاح الأهلية، التي كان يديرها مؤسسها الأستاذ عمر عادل، وتخرج فيها بتقدير متميز، حيث كان الثاني على طلاب المرحلة الابتدائية بالمملكة كلها، ولضيق ذات اليد أو للرغبة في إثبات الذات، أو بدافع حب الاستقلال عن والده، اضطر للعمل، فاختاره معتمد المعارف بالمدينة آنذاك الأستاذ محمد سعيد دفتردار رحمه الله، مدرساً بمدرسة النجاح نفسها، وكان يحسن الأوردية والإنجليزية إلى جانب إحسانه اللغة العربية، وكان على صلة بجريدة المدينة، ومجلة المنهل منذ تأسيسها، وتعتبر المنهل أقدم مجلة أدبية في المملكة صدرت سنة (1355هـ/1936م) بالمدينة

المنورة شهرية، ثم انتقلت منها إلى مكة، ثم استقرت بجدة، وماتزال إلى اليوم، أما جريدة المدينة فقد نشأت هي الأخرى بالمدينة في محرم سنة (1356هـ/ 1937م) أسبوعية، ثم صارت يومية، ثم انتقلت أيضاً إلى جدة.

وكان أول ما نشر بالمنهل قصة قصيرة بعنوان (الثأر) وذلك سنة (1357هـ)، ودخل التجربة القصصية من المدينة المنورة كوكبة من أدبائها الشباب آنذاك في مقدمتهم أحمد رضا حوحو (1330-1375هـ) الذي وصل إلى المدينة المنورة سنة 1352هـ وسنه إذ ذاك اثنان وعشرون عاماً، فاشتغل مدرساً بمدرسة العلوم الشرعية وسكرتيرا لمجلة المنهل، واستقر بالمدينة اثني عشر عاماً، عاد بعدها إلى الجزائر محتفظا بجنسيته السعودية، ومات بها شهيداً سنة 1357هـ، وكانت العلاقة الأدبية والاجتماعية وثيقة بينه وبين محمد عالم أفغاني، ويعتبران بحق من الرواد الحقيقيين لفن القصة بالمملكة العربية السعودية، وخاض معهما التجربة في نطاق المدينة المنورة بالذات: عبدالقدوس الأنصاري، وأحمد بشناق، وأمين مدني، وغيرهم.

ويلتقي هذان الصديقان، أعني: الأفغاني وحوحو، في أنهما لم يقْصُرا نشاطهما الأدبي على مزاولة كتابة القصة، بل حاولا أيضاً في الرواية، وكتبا المقالة الأدبية والتاريخية، وترجم الأفغاني من الأوردية والانجليزية، وترجم حوحو من

الفرنسية، الأمر الذي لا يمكن تجاهله بحال - كما فعل بعضهم حين أرخ لبداية الحركة الأدبية بالمملكة - بدوافع مختلفة.

وبعد أن تحولت مدرسة النجاح إلى مدرسة حكومية تحت إدارة الأستاذ ماجد عشقي، اشتغل فيها محمد عالم مدرساً، ثم وكيلا لمديرها.

ولزيادة نشاط محمد عالم أفغاني في مجال الترجمة، لفت أنظار معتمد المعارف الأستاذ محمد سعيد دفتردار مرة أخرى، فأسند له أمر تدريس اللغة الانجليزية بالمرحلة المتوسطة والثانوية فيما كان يعرف بطيبة الثانوية، وكان من زملائه فيها الأستاذ أحمد بشناق، والأستاذ صالح محسن الحيدري، وكلاهما كان من كتاب مجلة المنهل آن ذاك، وفي أثناء ذلك ألف الأفغاني مسرحية كان موضوعها إحدى الغزوات، حسب إفادة أخيه/ محمد قاسم بن محمد أكرم أفغاني/، مثلت في إحدى صالات مدرسة دار الأيتام، أشرف على إخراجها وكل ما يتصل بها بنفسه، ونجحت برغم ضعف الإمكانات، وغدت حديث الناس، وبهذا يمكن أن نضيف إلى رياداته بالمدينة المنورة على الأقل، احتفاله بالفن المسرحي.

ثم ترك الأفغاني التدريس، والتحق بوزارة الخارجية، كان سكرتيرا ثانيا بسفارة المملكة بإيران، وذلك بترشيح من السفير السيد حمزة غوث، ثم قنصلاً، وهناك أجاد اللغة الفارسية إجادة تامة، وبعد عودته من طهران تعرض لحالة نفسية، أخذت

تشتد عليه وتتزايد، وحين سمع بذلك جلالة الملك فيصل رحمه الله، أمر بعلاجه على حساب وزارة الصحة بالقاهرة، وكلف بالإشراف عليه وزير الصحة الدكتور رشاد فرعون شخصياً، ولكنه عاد بعد فترة، لأن المرض كان قد تمكن منه، فكنا نراه في شوارع المدينة المنورة يسير في قامته الفارهة عاري الرأس حافي القدمين، وبيده قفة صغيرة، يلتقط فيها بعض الأوراق الملقاة في الأرض، وأشياء أخرى صغيرة.

وكانت أسرته تحيطه بالكثير من الرعاية، ولكن لا تستطيع أن تمنعه من السير في الشوارع، حتى توفي رحمه الله في أواخر عام 1386هـ، ولم يتزوج، لكنه كان أخا لعشرة إخوان من الذكور، وعشر أخوات، تزوجت إحداهن من الشاعر حسين عرب (وزير الحج والأوقاف الأسبق)، وقد كنت على صلة بأخيه محمد قاسم المولود بالمدينة سنة 1352هـ، والمتوفى بها سنة 1420هـ، وكان من أبرز الموظفين بالجمارك والجوازات بالخبر وجدة فالمدينة، ثم تفرغ للأعمال الحرة، ومنه استقيت بعض تفاصيل حياة صاحبنا محمد عالم أفغاني، ولم تزل فروع أسرته في اتساع. ويذكر السيد حبيب محمود أحمد أن أسرته كانت تتميز بالغنى والوفرة.

ويذكر أبو عبدالغفار محمد حميدة الطيب، وهو من رجال التعليم البارزين في عهد الأفغاني، أن الأفغاني كان يتميز بمجموعة من الصفات الجميلة منها الذكاء والفطنة، والأناقة في

الملبس، وجمال الخط، والقبول عند الناس، كما يذكر أن للأفغاني مجموعة من الكتب القصصية مطبوعة، يؤكد أنه قرأ أصولها، وهي:

1 - ما يعجز الشيطان عن فعله.

2 - من عالم الأحلام.

3 - قصور من ورق.

وقد أشار إلى ذلك أيضا أخوه محمد قاسم، وقال: إنه طبعها بالقاهرة.

- وأول قصة نشرها بالمنهل هي قصة (الثأر)، وذلك في المجلد/3 جـ/3 سنة 1357هـ.
- ويذكر الأستاذ عبدالفتاح أبو مدين: أن الأفغاني كان يتميز بذلافة اللسان، وجمال الإلقاء.
- ومما تميز به الأفغاني وحوحو أنهما كانا يحسان بافتقار أدب بلدهما السعودية إلى هذا الفن الأدبي الجديد، فلم يقتصرا على محاولة الكتابة فيه، بل دعيا الكتّاب إليه، وقاما بترجمة بعض القصص إلى العربية، ويشاركهما هذا الإحساس الأديب الشاعر القاص محمد سعيد العمودي، إلا أنه لم يكن يحسن لغة أخرى حتى يترجم منها، لكنه دعا إلى الترجمة وحث عليها، وكتب في ذلك مقالين بالمنهل، نشر الأول في المجلد الأول/ جـ/5 ص/11 جمادى الأولى 1356هـ/ فقال:

الأدب القصصي في الحجاز

- 1 -

نواحي الضعف في أدب الحجاز - خلوه من القصص - بعض محاولات - قصة الوفاء

لعل نواحي الضعف في هذا الذي يسمونه (الأدب الحجازي) على رأي بعضهم، أو الأدب العربي في الحجاز على رأي البعض الآخر، لا تكاد تتجاوز ثلاثة أو أربعة اشياء، فأما أولها وأظهرها والملموس لدى الجميع هو ضآلة الثقافة العامة لدى الكثرة من الغالبة من المتأدبين، وهي النتيجة الطبيعية لأمرين اثنين هما:

1 - هذا التعليم المدرسي المحدود، هذا التعليم الذي لم يتعد حتى الآن البرنامج الابتدائي، وهو أول وأبسط الدرجات التعليمية في العالم جميعه.

2 - ثم عدم تكون (روح القراءة) فينا، وأعني بها القراءة المستمرة المنظمة لما أخرجته وتخرجه المطابع في كل يوم، من كتب ناضجة تتناول أشتات العلوم والآداب والثقافات.

وليس في القول مبالغة إذا ما قال القائلون إن كل عمدتنا في تكوين ثقافتنا العامة إنما هو على الصحافة وكفى.. فهل كان هذا يا ترى لأن ما تقدمه الصحافة لقارئيها

إنما هو من النوع الخفيف الذي يهضم بسهولة! أكبر الظن أن هذا هو التعليل الصحيح لتسرب هذه الروح في نفسية السواد الأعظم منا، وأكبر الظن أن ما تفرضه كتب العلم والأدب والاجتماع وغيرها من تعب وكد وعناء لقرائها وروادها، إنما هو السر الوحيد في جنوح هذا السواد عنها ونفوره منها باطراد واستمرار.

شيء آخر - وقد يكون هذا الشيء أكثر أهمية مما سواه - شيء آخر نشأ عن عدم تكون روح القراءة فينا هو: عدم العناية بدراسة آدابنا العربية القديمة دراسة فحص واستقصاء، وما احتوته هذه الآداب من كنوز، وما مر عليها من مختلف الأدوار والعهود، هذه الآداب التي يجب أن تكون أساس أدبنا الحديث إن شئنا لأدبنا الحديث أن يكون أدبا له شخصيته البارزة، وله طابعه القومي المجيد.

أضف إلى كل هذا: عدم إلمام أكثرية متأدبينا إلمام تذوق بنقد ثقافات الآداب الأجنبية، تلك الآداب التي لابد من الإلمام بها، وتذوقها، وهضمها إن شئنا لأدبنا الحديث أيضاً أن يكون أدبا حيا راقيا ممتازاً، وأن يكون صورة من هذه الحياة التي يحياها الناس، ومرآة لهذا الزمن الذي يعيشون فيه .

أما الاعتذار عن هذا الضعف بعدم دراسة لغات هذه الآداب فيدحضه أن هذه الآداب، قد ترجم الكثير من آثارها

الخالدة إلى لغة الضاد، وفي القليل من هذا الكثير ما يكفي حاجة الأديب العربي إن هو أحاط به وتذوقه، وما يسمو بثقافته الأدبية إلى الشأو المرموق.

فلندع كل هذه النواحي المتقدمة جانبا الآن، ولنتحدث عن ناحية أخرى من نواحي هذا الضعف المزري في أدبنا الحديث، وهي الناحية التي نكتب هذا المقال من أجلها، الناحية التي أصبح لها أهميتها واعتبارها في هذا العصر الراهن، عصر العلم والثقافة، عصر الحضارة والمدنية، عصر الديمقراطية الأدبية، إن جاز هذا التعبير!

هذه الناحية هي ناحية الفن القصصي، فالواقع أن أدبنا الحديث مازال ميدانه الرحيب خاليا من آثار هذا الفن الجميل الجليل من فنون الآداب، والواقع أن كل آثار أدبائنا في الشعر والنثر ما زالت مقتصرة على شكل واحد من أشكال الأدب، فليس سوى (أدب المقالة) في النثر، وليس سوى (أدب القصيدة أو المقطوعة) في الشعر، ليس سوى هذين الشكلين من أشكال الفنون الأدبية يقرأ القارئون لأدباء الحجاز، أما أدب القصة في عالم النثر أو في عالم الشعر فلا أثر له، كما يجب أن يكون.

نعم لقد حاول بعض كتابنا النابهين فيما مضى من الأوقات، كما يحاول أفراد قلائل منهم الآن بعض محاولات

أولية بسيطة في الكتابة القصصية، وكان فيما نشروه من قصص برهان على وجود الروح القصصية لديهم وعلى استطاعتهم الوصول إلى درجة النضوج في هذا الميدان إن هم ثابروا على المضي فيه... أذكر من هؤلاء الكتاب الأساتذة : حسن فقي - وعبدالقدوس الأنصاري - وعبد الوهاب الآشي - وعزيز ضياء - وحسين سرحان.

فقد نشر الأول قصتين بارعتين في إحدى الصحف المصرية منذ سنوات هما (زهرة الإثم) و(الأسرة البائسة)، وللأستاذ الأنصاري قصة (التوأمان) التي طبعت مستقلة، وقصة أخرى نشرت في صوت الحجاز، كما أن للأستاذ عزيز ضياء قصصه التي أتذكر منها (الابن العاق) و(ليس ابني) و(عيد)، وكلها تشهد لهذا الأديب بأنه قاص ماهر مجيد!.

وأخيراً رأينا في أحد أعداد المنهل الأغر فصلا من قصة للأديب حسين سرحان.

أما صاحبنا الأستاذ الآشي فله روايته (خالد) التي لا ندري متى تنشر للناس وقد مضى عليها حين من الدهر!.

والأستاذ السباعي... ولابد من وقفة عنده! وإشارة إليه أيضا ؟ فهو الأخير ميال جداً أو جد ميال! أو ما لا أدري... إلى أن يكون كاتباً قصصياً، فناناً. وفي الحق أن الروح القصصية متوفرة لديك يا أستاذ! وانا أزعم إذن أنك ستكون كاتباً قصصياً من الطراز الأول... وهذا الذي تنشره بين الحين

والحين من قصص اجتماعية نقدية لا بأس به، لولا... لولا هذا الشغف الزائد بالخيال وهذا التكلف الظاهر فيه، وهذا الولع الشديد بالمبالغات، وتباعد أكثر موضوعات هذه القصص عن منطق الحياة الواقعية، وجو الحياة الواقعية. على حين أن سر تفوق الفن القصصي الحديث - كما تعلم - وسر ذيوعه وإقبال جماهير القراء عليه، إنما يعود إلى بعده عن الخيال بقدر الإمكان والتئامه مع منطق الحياة، وحرصه على تصويرها كما هي في دقة وبساطة واقتصاد، ونأي عن المبالغة والتهويل.

وأنا أكتب هذا البحث الآن وأمامي أحد أعداد صوت الحجاز الأخيرة[1] وقد نشرت فيه قصة للأديب الجدّي (أمين يحيى) بعوان (الوفاء)، وأصارح القارئ الكريم أني قرأت هذه القصة ثم قرأتها ثم قراتها.. وأنها من بين سائر مواضيع هذا العدد لفتت نظري بوجه خاص، وعلى الرغم من أنه حافل بعدة مواضيع أخرى هامة وطريفة، لفتت نظري هذه القصة أولاً لأنها أوقفتني أمام (مفاجأة صحفية)، ثم ما عتمت أن رأيت فيها جاذبية خاصة دفعتني لإعادة قراءتها، ولفتت نظري ثانيا لنضوجها، واحتوائها على أهم ما يجب أن تحويه القصة من عناصر، ففي دقة تصويرها، وسمو فكرتها، وبساطة أسلوبها، ووجود روح الفن فيها، ما يجعلها حقيقة في مصاف القصص الفنية التي نقرأ العشرات منها في صحافة مصر وسوريا، وفي (واقعيتها) التي صورها لنا الكاتب الأديب بلباقة وبساطة،

يؤمن كل منا بوجود هذا النوع النادر من الأصدقاء الذين أبرز لنا عنهم في شخص أحد الصديقين في قصته (صورة طبق الأصل)، وهذا الذي حكاه لنا عن موقف ذلك الصديق الحاري نحو صديقه، وغدره له، ونكوصه عنه، حين اشتداد وطأة المرض عليه، وإشرافه على الموت، يكاد يكون أمراً خلقياً شائعاً في الكثير من الأصدقاء، أو بعبارة أخرى (أدعياء الصداقة والولاء)، ونقول نحن: إن شيوع هذا الخلق وأمثاله في الطبقة الحارية التي عناها كاتب القصة لا يكاد يذكر بجانب شيوعه في بعض الطبقات الأخرى!!!

وواقعية هذه القصة، وصدق تصويرها يتجليان أيضا في هذا الذي وصل إليه ذلك الصديق الغادر أخيراً من خجل وندم عظيمين أمام صديقه الذي غدر به من قبل حينما نكبه المرض، وأوحى إليه جحوده أن يفرط في القيام نحوه بواجب الصداقة وواجب الإنسانية، رأى ذلك الصديق الغادر نفسه، قد وقع فريسة للمرض هو وذووه فلم ينقذه مما ألم به إلا صديقه القديم الوفي المتسامح، ذلك الصديق الذي سرعان ما نسي كل ما بدر في حقه من صديقه الخائن من جحود وغدر وإنكار، فما هي إلا الدمعة تسقط من عيني الصديق الغادر النادم، وما هو إلا أن ينهال على يد صديقه لثماً وتقبيلاً، ويطلب منه الصفح والغفران، وما هو إلا أن ينسى الصديق الوفي كل شيء بعد أن رأى من ندم صديقه الغادر في هذا الموقف الأليم، ما فعله فيه

توبيخ الضمير.

هذا التصوير القصصي البديع، إنما هو تصوير حقيقي للنفس الإنسانية، إنما هو تصوير منطقي معقول، مشتق من صميم الحياة ومتفق مع أصدق نظريات علم النفس الحديث.

وسمو الفكرة في هذه القصة يتجلى واضحاً في هذه الدعوة للتخلق بفضيلة الوفاء، هذه الدعوة التي يرسلها الكاتب ضمناً من خلال سرده لحادثة قصته عن طريق تصوير رذيلة غدر الأدعياء من الأصدقاء... في صورتها الحقيقية العارية، تلك الصورة التي يترفع أن يضع نفسه في (إطارها) بعد أن يراها في شكلها الحالك الممسوخ كل من منحه الله ضميراً وحساسية، وتقديراً للمعاني الإنسانية وحرصاً على مراعاتها.

نقول:

إن أكتب الكاتبين مهما شاء أن يكتب عن فضيلة (الوفاء) ويدعو إلى التخلق بها عن طريق الأساليب الكتابية المعتادة، التي لا تعدو ذم الرذيلة والتنفير منها، ومدح الفضيلة والتحريض عليها، والاستشهاد بما قال أكابر الفلاسفة وأساطين الحكماء... فلن يمكن أن يكون لكتابته تأثيرها في النفوس مثل ما لأمثال هذه القصة من التأثير، ذلك لأن تصوير الفضيلة والرذيلة تصويراً قصصياً مشتقاً من الحوادث اليومية

الواقعية التي يشاهدها كل الناس، مما يجعل النفوس على اختلاف ميولها ونزعاتها أعظم إيماناً واقتناعاً بما يتحدث عنه الكاتبون، وأكثر تأثراً وانصياعاً لما يدعون إليه من آراء وأفكار..

●●●

ونشر الثانية في جـ/6 جمادى الأولى/ 1356هـ/ فقال:

الأدب القصصي في الحجاز

- 2 -

مقام القصة في الأدب الحديث - الأدب الديمقراطي - والأدب الأرستقراطي - أمل ورجاء!!

.. من هنا يمكننا أن نتصور مقدار الأثر الكبير الذي يحدثه انتشار الأدب القصصي، ومن هنا يمكننا أن نتبين أسباب ما وصلت إليه القصة من مقام ممتاز، في جميع الآداب المعاصرة، وما تفردت به من طغيان على سائر الأساليب الأدبية. لقد أصبح الفن القصصي دعامة من أقوى الدعامات التي تقوم عليها آداب كل الأمم، وليس ذلك تقليداً - كما يتبادر للذهن - من بعض الأمم لبعضها الآخر، وليس هو ناشئا عن طبيعة العدوى، أو عن غريزة التشبه والمحاكاة، لا... ليس الأمر كذلك، إنما كان كل هذا الذيوع الهائل الذي وصلت إليه

القصة الحديثة في القرن العشرين لما اتضح من تأثيرها العظيم في نفوس كل الطبقات من القراء، ونجاح أي دعوة عن طريقها إلى أي فكرة من أفكار الإصلاح، وأي نزعة من نزعات الخير والفضيلة، وأي نظرية من النظريات في جميع المواضيع والشؤون.

وتبدو ظاهرة الديمقراطية واضحة جلية في انتشار الأدب القصصي هذا الانتشار الذي أشرنا إليه، ذلك أن أدب القصة أدب يقبل على قراءته كل الناس من جميع الطبقات، يتذوقه خاصة الناس وعامتهم، المتعلمون منهم وغير المتعلمين، أدب لا يحجم عنه أي فريق من هؤلاء، وهذا الإقبال العام لا شك في أنه واضح التعليل، لما ركب في الفطرة الانسانية من ميل غريزي إلى سماع الأخبار والحكايات، خلافاً لأنواع الأدب الأخرى، كأدب المقالة مثلاً، فها نحن نرى رأي العين كيف أن الإقبال على هذا الأدب الأخير حتى في الأمم التي بلغت الشأو الأبعد من الثقافة والمدنية، لا يكاد يتجاوز - إذا استثنينا أهل الاختصاص من رجال العلم والأدب - أقلية بسيطة جدا من طبقة المتعلمين وحدهم.

فأدب المقالة إنما هو أدب خاصة الناس ومتعلميهم، ودائما هؤلاء لا يكونون إلا الأقلية الصغرى في الشعوب - أما أدب القصة فهو أدب الجميع، أدب الخاصة والعامة على السواء.

ولعمري إن أحسن وصف للأدب القصصي، وأصدق تعريف له، إذا كان لا بد من تعريفه التعريف الدقيق، هو أن نسميه (الأدب الديمقراطي)، بذلك نميزه عن غيره من فنون الآداب الأخرى، التي يجب في هذه الحال أن تنعت هي الأخرى بما هي حرية به من وصف وتعريف، وأن تسمَّى (الآداب الأريستوقراطية).

ولهذه الظاهرة الديمقراطية التي انتهى إليها أدب القصة كما هو المشهود مزاياها التي لا يمكن أن ينكرها المنكرون، وليس شك أن من أعظم هذه المزايا إنما هو تكثير سواد القارئين في البلاد، وتعويدهم القراءة المستمرة، والتمكن عن طريق الإيحاء الذاتي لهذه القراءات من تربية الذوق الأدبي السليم في نفوسهم، وبذر بذور الفضيلة والأخلاق الراقية والمبادئ السامية في هذه النفوس، والسمو بها إلى نشدان المثل العليا في الحياة! ومن ثم يتسنى للأدباء والفنانين حيال ما يرونه من رواج للأدب وإقبال عليه أن ينتجوا أو يواصلوا الإنتاج، وأن يقيموا للأدب دولته المجيدة على أمتن الأسس وأقوى الصروح!

●●●

وبعـــد..

فقدأشرنا فيما سبق من الكلام إلى تلك المحاولات التي

حاولها بعض كتابنا البارزين في الكتابة القصصية، ونوهنا عما نشروه من قصص ليست بأقل شأنا من هذه القصص الكثيرة التي ينشرها الأدباء في العالم العربي، كما تكلمنا في شيء من التحليل عن آخر ما قرأناه من القصص الحجازية، ونعني بها قصة (الوفاء) التي نشرتها صوت الحجاز في أحد أعدادها الأخيرة، ولقد أدرك القارئ الكريم من كل ذلك أن الروح القصصية الفنية، موجودة على أتمها في أدبائنا الحجازيين، وأنه بإمكانهم المضي في هذا الميدان إلى النهاية، وبإمكانهم أن يكونوا فيه سابقين.

لقد نهض الأدب في الحجاز، ذلك قول لا نحسب أن نعارض فيه، لكن هذه النهضة إنما هي بمثابة الوثبة الأولى التي تعقب الرقاد الطويل؟؟، فأما ما بعد هذه الوثبة من وثبات متواليات، وأما ما بعدها من سير حثيث بانتظام، وتقدم مطرد إلى الأمام.. فليسمح لي أصدقائي وغير أصدقائي من رجال القلم في الحجاز أن أهمس في آذانهم بعدم وجود شيء من هذا الذي يجب أن يكون..!

لم ينهض الأدب إلا نهضته الأولى فحسب، ولكنه في حاجة ماسة لأشياء كثيرة لا مندوحة له عنها، إذا أريد استمرار النهوض، هو في حاجة أن يقضي على عناصر الضعف المتسلطة عليه، في حاجة إلى أن يتقوى (أولاً) بترقية مستوى التعليم ونشر الثقافة العامة، ودراسة آدابنا العربية في جميع

عصورها، ثم تغذية هذه الدراسة، وهذه الثقافة، وهذا التعليم، بالجميل المفيد من خلاصة آثار الآداب الأجنبية.

وأخيراً لا أقول بالثورة على (أدب القصيدة) أو (أدب المقال) فليس يقول ذلك قائل، بل أدعو متحمساً إلى المحافظة عليهما والسير في ترقية مستواهما ومحاولة الوصول بهما إلى القرب من درجة الكمال! على أن لا يمنعنا ذلك من المشاركة في الفنون الأدبية الأخرى، والأخذ منها بالنصيب الأوفى، والقصة في جميع أساليبها وأشكالها في طليعة هذه الفنون، ذلك لكي يكون أدبنا أدباً ناهضاً متجدداً متميزاً بحيوية الروح، وجامعا بين القديم والحديث، محتفظاً بمركزه الممتاز كما كان في أزهى عصوره الذهبية.

ثم لكي يكون أيضاً (أدباً ديمقراطياً) بالمعنى الصحيح، إذ تتجلى فيه حياة الشعب في شكلها الواقعي، أدباً تتذوقه كل الطبقات، ويقبل على الارتواء من منهله العذب خاصة الناس وعامتهم، أدباً لا يستأثر به المتعلمون وحدهم أو الأدباء وحدهم، بل يكون في متناول الجميع حتى يمكن أن يؤدي رسالته على الوجه المنشود وحتى يمكن لأن يتاح له أن يحقق منا لهذه الرسالة من سامي المبادئ وشريف الغايات..

●●●

● وكتب الأفغاني في ذلك مقالة بعنوان (في القصة) بالمجلد/7 جـ/6 جمادى الثانية 1366هـ/ فقال:

قال صديقي مرة وهو يحاورني: إن ما تكتبه ليس قصصاً، لأن الجيد منها نكاد نشم من بين سطوره رائحة الأرض التي تجري حوادثها عليها، وأنا أوافق الصديق على أن كثيراً من القصص الجيدة نتمنى أن نعيش فيها طويلا وأن نقرب من أرضها كثيراً، وأن نشاركها وجدانياً حيناً، والمذهب الطبعي في الفن يقرر أنه ليس من سبيل إلى فهم الشخصيات والحوادث فهما منطقياً ما لم نتبصر أثر الوراثة والبيئة، سواء أكان الغرض من ذلك درسها أو إبداعها، ويقول فيلسوف الفن والجمال (تين - Tain) إنه ينبغي أن ندرس الجنس والبيئة والزمن لشخص ما قبل أن نشرع في درسه[2].

ولكن ما كل الكتاب يرتضون هذا المذهب دون غيره، فإميل زولا وهو الحارس الأمين لهذا المذهب الطبعي لم يكن في رأي النقاد أكثر من (طبعي واقعي)[3] في كثير مما كتب، بل إنني لأقرأه في (أسرار مرسيليا)[4] فأجد نفحات من تلك الرومانتيكية الحالمة الهادئة، وأرى صوراً تنبع من الذات، وليست من الموضوعية في شيء.

أما القصص التي تكتب على صورة اعترافات فهي تخضع للرومانتيكية، كلما كان الاهتمام منصرفاً إلى بطل واحد كان المقصود أن تترك في نفس القارئ حزناً مترقرقاً

حائراً[5]، وتقرب من الواقعية كلما اتجهت النية إلى توزيع الحياة في أشخاص القصة على حد سواء .

وأغلب ما تجد النفس المنطوية غذاءها المفضل في رومانتيكية تخف وتشتد حسبما يكون الانطواء في النفس، صعوداً وهبوطاً. وأغلب ما تميل إليه النفس المنبسطة واقعية ممزوجة بالفكاهة، وهذا لا يعني استحالة أن تجمع النفس الانطواء والفكاهة أحياناً، وأن يكون للنفس المنبسطة نصيب من رومانتيكية خفيفة، وإطلاق حكم عام على النفس البشرية تجمع بينها الشتيت تحت لافتات محدودة، أمر لا يصح أن يصدر من عاقل..

وبعد: فالشيء الذي لا نستطيع إغفاله ولو سترنا العين بالأيدي، أن الكتاب الذين استطاعوا ان يقفوا في وجه الزمن ساخرين يعيينا أن نكبل أيديهم إلى مذهب من المذاهب الفنية قديماً وحديثاً..

●●●

● ومع ذلك فإن بعض الكتاب - (كما يقول الدكتور محمد عبد الرحمن الشامخ في كتابه (النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية) 1900-1945م/ ص/123 ط1395/1هـ-1975م) - «لم يكونوا شاعرين بما بين القصة والرواية من فروق فنية، ولذلك فإنهم لم يدركوا بأنه كما تختلف القصة القصيرة عن

الرواية في الطول، فإنه يجب أن تختلف عنها كذلك في الخطة والبناء والهدف، لقد فقدت معظم القصص القصيرة التي أنتجت في هذه الفترة ما تقتضيه أسس القصة القصيرة من الاقتصار على فكرة واحدة، وتعالج من أجل تحقيق هدف واحد معين، وتتناول بطريقة محكمة تسعى بالحادثة إلى نتيجتها المنطقية، ويفتقر معظم هذه القصص كذلك إلى ما تتسم به القصة القصيرة عادة من التركيز على شخصية واحدة تصور من خلال اشتراكها في حادثة معينة، أو موقف قصصي واحد. ولذلك فقد بدت هذه القصص كما لو كانت مختصرات روائية أبرزت قي شكل قصص قصيرة».

ثم مثل لهذا النوع من القصص الرائدة على هذا النحو قصة (رامز) لمحمد سعيد العمودي، مع دراسة لها، ثم ثنى بالحديث عن إحدى قصص محمد عالم أفغاني، وهي قصة (عودة سعيد)، وعلق عليها بما هي أهله وامتدحها بالترابط العضوي، ومما قاله حولها (ص: 131-134).

«وتشبه قصة (عودة سعيد) التي كتبها محمد عالم الأفغاني القصة السابقة من حيث الاهتمام بتحليل المشاعر النفسية والخطرات الذهنية. فقد كان سعيد بطل هذه القصة مسؤولاً عن متجر كبير يملكه العم عبد الغني. ورغم هذه الثقة فإن سعيداً لم يكن يحصل إلا على أجر زهيد لا يكاد يكفي حاجته وحاجة أمه العجوز العمياء، وحين عجز عن أداء الديون

التي تراكمت عليه، أمهلته الشرطة أربعا وعشرين ساعة لكي يعطي الدائنين حقوقهم، وإذ أدرك انه سيذهب إلى السجن إذا لم يف بدينه، فقد راودته نفسه في أن يمد يده إلى صندوق المتجر، ولكنه عاش في صراع بين حاجته الماسة وولائه لصاحب المتجر، وحين استسلم لنزغات الحاجة انتابته الوساوس والمخاوف، وسامته الأحلام المروعة سوء العذاب، وفي صباح اليوم التالي وجد نفسه يتقلب في نار الحمى، فبقي في بيته ولم يذهب إلى عمله، وحين سمع طرقات شديدة على الباب، قام نحوه متخاذلاً متهالكاً، ولكنه بهت عندما رأى صاحب المتجر ومعه رفيقٌ ظنَّه رجلا من رجال الشرطة، وإذ خيل إليه أن سره قد اكتُشف ولى مدبراً وقد امتلك الخوف والخزي فؤاده، ولكنه ما لبث أن عرف أن الرجل المرافق لسيده لم يكن سوى جار أتى ليعوده، فهدأ روعه، وعزم على التوبة النصوح، وعندما خرج الزائران أسرع إلى المتجر، وأعاد النقود إلى الصندوق «بيد مرتعشة»، ولكن عبارات الحمد والثناء التي رفعها إلى ربه كانت آخر ما تفوه به من كلمات، فقد اشتدت عليه وطأة الحمى فمات بعد ذلك بقليل.

لقد كانت الساعات الأربع والعشرون التي أمهلها سعيد لكي يفي بدينه حافلة بالأحداث، ولكن الأفغاني لم يهتم بالحوادث الخارجية مثل اهتمامه بتأثيرها في نفس سعيد وذهنه، فقد أصبح الحدث الحقيقي شيئاً ثانوياً بالنسبة للصراع

الداخلي، ولذلك وجهت الأضواء للكشف عما يدور داخل النفس والذهن من انفعالات مبهمة غامضة، وصورت مشاعر الحرمان والتردد والفزع تصويراً دقيقاً مؤثراً، وقد وفق الكاتب في أن يستأثر بأحاسيس القارئ ويشده إلى مراقبة ما كان ينتاب سعيداً من انفعالات متضاربة متصارعة. ولعل الفقرة التالية التي تصور ما حل بسعيد من الرعب والفزع حين امتدت يده بالسرقة لأول مرة في حياته كافية لتبيان هذه الحقيقة. قال الكاتب:

«كانت ليلة ليلاء على سعيد تنهبه الوساوس والشكوك، فيتمثل العم عبدالغني هاجماً يريد أن يسحقه بعصاه المتينة... ثم يرى العم عبدالغني وقد أخذ بخناقه يريد أن يسحبه إلى دار الشرطة وهو يبكي وينشج نشيجاً يفتت الأكباد... ثم يتلاشى المنظر السابق فيخيل إليه أنه واقف فوق جبل شاهق، في سفحه هاوية هائلة لا تقر العين عليها من هيبة منظرها، فيفاجئه العم عبد الغني يريد إلقاءه من ذلك الشاهق... فكان في تلك الحالة من الآلام النفسانية لا يطرق النوم جفنه مهما حاول ذلك، وقد أخذته حمى حامية من جراء الخوف والفزع، فلم يستطع الذهاب في الصباح الباكر إلى المتجر وهو يهذي هذياناً مستمراً غير مفهوم ، وكان المطر يتهاطل بغزارة...

وبغتة طُرِق باب بيته طرقاً متواصلاً شديداً، فصحا

سعيد من غمرة حماه فزعاً مذعوراً، وطرق سمعه صوت الطارق، فإذا به صوت العم عبد الغني يصيح: «افتحوا الباب»...

فغاص قلبه من الخوف وانعقد لسانه، فسكت عن الهذيان، وأراد القيام فترنح وسقط على سريره مرة أخرى... لابد وأن العم عبدالغني قد اطلع على كل شيء وجاء يعاقبه... ويلومه... سيلقى ويواجه ما كان يكره أن يلقاه... ليت أمه لم تلده... لكن مهلاً: لا يمكن أن يكون العم عبد الغني علم بفعلته ولم يمر عليها سوى عشرين ساعة... فتماسك قليلا وقام إلى الباب يعالج فتحه، لكنه ما كاد ينفتح الباب على مصراعه حتى شاهد رجلين...

أحدهما كان العم عبد الغني، والآخر كان... شرطياً...

صاح سعيد صيحة مفزعة وولى أدباره يجري إلى داخل البيت، فدخل في أثره العم عبدالغني بصحبة الشرطي، ثم اهتدى الاثنان إلى سريره فألفياه غارقاً في الحمى يتقلب على السرير مضطرباً كالسمكة على اليابسة، ويئن أنينا خافتا...».

إن أبرز الخصائص في شخصية سعيد هو ضعفه الذي جعله يقف عاجزاً لا حيلة له حين اعترضته المشاكل، فقد عمل تسع سنوات مع سيد كان يعتبره راعياً له منعماً عليه ، ولكن هذه السنوات لم تقلل من ديونه بل زادته فاقة وإملاقاً، فأصبح

متأرجحاً بين أمرين، فإما أن يبقى وفيا لسيده فيلاقي الفضيحة والسجن، وإما أن يلجأ إلى السرقة فيعاني من عذاب الضمير، ولا شك في أن خصيصة الضعف هذه قد مكنت الكاتب من أن يرسم صورة مقنعة تبرز عوامل الصراع والتردد التي عصفت بسعيد في موقفه هذا، وقد يبدو الجزء الأخير من القصة - الذي يتناول مرض سعيد وموته - مشوباً بالافتعال والتكلف إذا ما أوله القارئ تأويلاً ظاهرياً مباشراً، ولكن من المحتمل أن يكون الكاتب قد أراد القول بأن سعيداً مات موتا معنوياً لا جسدياً مادام قد عجز عن أن يجد لمشكلة بسيطة كهذه حلاً إيجابياً بناءً، لقد فقد الحياة حين صار وجوده الحقيقي عبئاً على الأحياء، ولعل موته الظاهري لم يكن سوى رمز لهذه الحقيقة المعنوية.

وإذا ما أراد الناقد أن يتلمس أوجه التشابه بين بطل هذه القصة وبطل قصة (دموع العيد) لمحمد أمين يحيى، فإنه سيجد أن كلاً منهما سمي بسعيد، وأنهما قد أصيبا بالحمى، كما أن كلاً منهما كان وحيد أم عجوز أرملة تعتمد عليه، ولكن وجوه الشبه لا تتعدى هذا النطاق الظاهري، ذلك أن البطل في قصة (دموع العيد) قد عانى من مرض جسمي ساعده على تحمل حنان أمه ورعايتها، وقد وجهت الأضواء هنا إلى المرض ذاته فأصبح موضوع القصة الرئيسي، وصارت النهاية سعيدة حين زال مرض الحمى، ولكن البطل في قصة

الأفغاني لم يكن بمثل هذه البساطة من حيث المظهر النفسي، فقد وقع في ورطة أخلاقية هزت منه الأعماق، وكانت هذه الورطة هي المركز الذي دارت القصة حوله، لقد كان مرضه أمراً ثانوياً أتى نتيجة لما تعرض له من فزع وقلق وأسى، وكان عليه خلافا لسعيد بطل قصة (دموع العيد) أن يجابه مشاكله وحيدا دونما مساعد أو معين، وما كانت أمه - التي لم تظهر على المسرح إلا لماماً - عاملاً من العوامل التي تخفف عنه مأساته، بل كانت إعالته لها حملا زاد وقره، وجعله غير قادر على أن يقرر مصيره بنفسه، ولذلك كانت نهايته نهاية مأساوية.

وقد اتسمت قصة (عودة سعيد) بوحدة عضوية زادت من قيمتها الأدبية، كما أن بناءها الفني كان بنّاءً مركزاً هدف إلى الوصول نحو غاية فنية محددة، ولم يفصّل الكاتب في الحديث عن الشخصيات الأخرى كصاحب المتجر والأم، بل جعلها تقوم بأدوار ثانوية وذلك لكيلا تقلل من أهمية الشخصية الرئيسية، شخصية سعيد التي سيطرت على الموقف منذ بدايته، وكانت المحور الذي دارت الأحداث القصصية حوله، وتمثل قصة الأفغاني هذه ما حققته القصة القصيرة في الأدب السعودي من تطور نسبي، إذ تبين من حيث شكلها ومضمونها شيئا من النضج الفني الذي يزيد من قيمتها إذا ما قورنت بتلك

النماذج القصصية التجريبية التي أشير إليها من قبل».

ثم أثنى على قصة أقرب إلى الفنية للقاص أحمد رضا حوحو، ظهرت بعد ذلك في مجموعته: (صاحبة الوحي).

وفيما يلي نقدم ما أمكننا جمعه من آثار محمد عالم أفغاني من ثنايا مجلة المنهل، والذي صنفناه في مناح ثلاث هي:

1 - مقالاته. 2 - مترجماته. 3 - قصصه.

أولاً: مقالاته

فتوح السند(*)

محمد بن القاسم الثقفي

- 1 -

تمهيد

من المؤسف حقاً أن يغمط التاريخ والمؤرخون هذا القائد المغوار حقه فلم يذكروا من مولده أو نشأته شيئا يذكر اللهم إلا نزرا يسيرا ضمن فتوحاته الواسعة التي تركت أثرا خالدا في قلوب أولئك المغلوبين الذين ذرفوا الدمع مدراراً لما أحسوا بفراقه لهم إلى الأبد.

*) المنهل، المجلد 3 جـ 10/ 1358هـ.

فالبلاذري وابن الأثير وإن كانا قد أسهبا في فتح السند، إلا أنهما لم يلقيا أي ضوء على المكان الذي درج منه هذا الشاب الباسل، وابن خلدون لم يكلف نفسه أكثر من أن ينقل من البلاذري ما كتبه عن فتوح السند بنصه وفصه، وقاموس الأعلام للزركلي لم يترجم له بحرف، لكن هناك بصيصاً من النور يشع من بين دفتي تاريخ المؤرخ الشهير (فرِشْتَه)، فيجلي جانبا من أعمال ذلك الشيخ الهائل الذي تجاهله بعض المؤرخين بتاتا كالمسعودي، وهناك فارس صنديد وقف يدافع عن ذلك البطل الجندي المجهول بقلمه الذي يغمر صريره آفاق الهند، رداً على أولئك الهندوك المتعصبين الذين يرمون هذا الشاب بتهم زائفة كاذبة، وهو المؤرخ الهندي العظيم (أكبر شاه خان النجيب آبادي) في مؤلفه (آيينه حقيقة نما)، وعلى هذه الكتب التي ذكرناها أكبر معولنا في هذا البحث المتواضع.

نسب محمد بن القاسم:

يقول ابن الأثير في حوادث سنة تسع وثمانين حين يذكر قتل داهر ملك السند: أن محمد بن القاسم والحجاج يجتمعان في الحَكَم، وهو الجد الأول للحجاج والثاني لابن القاسم، فيكون نسبه هكذا:

محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن

عامر بن مسعود بن معتب، بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف.

ويقول الأستاذ محمد شفيع أستاذ التاريخ في (جامعة) ببلدة بشاور من أعمال الهند في كتابه (تاريخ الهند) نقلا عن History of India[6] أنه محمد بن القاسم صهر الحجاج.

مولده:

إن المروءة والسماحة والندى — لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الرجال لسبع عشرة حجة — يا قرب ذلك سؤدداً من مولد[7]

بهذين البيتين رثى حمزة بين بيض الحنفي باسلنا المنكود، ضحيةَ الضغائن الشخصية، ورثاه شاعر آخر بهذا البيت:

ساس الرجال لسبع عشرة حجة — ولداته عن ذاك في أشغال

إذن فقد كان صاحبنا على رأس ذلك الجيش الجرار الذي جرده الحجاج على (داهر) وهو بعد في السابعة عشرة من ربيع عمره، ومهما كانت ريبتنا في صدق كلام هذا البيت بيد أنه ليس من الحق في شيء أن نغض عنه النظر لمجرد كوننا لا نستطيع أن نتخيل فتى في السابعة عشرة يقود جيشا عظيما بفكر ثاقب وجنان ثابت، وقد سبق أن هزم اسكندر المقدوني دارا ملك فارس وهو لم يتعد العشرين من عمره القصير، فقد يكون الشاب من أصالة الرأي ونفاذ البصيرة ما يتعذر

وجودهما في غيره، وأين تلك الشجاعة الخارقة التي حملت طرفة الشاعر أن يحمل تلك الرسالة التي افتضح أمرها والتي كانت تحمل موتاً زؤاماً إلى عامل البحرين، وجان دارك تلك الفتاة من ذوات الخدور طردت الإنجليز من فرنسا وتوجت شارل السابع وهي طفلة كبيرة عمرها ثماني عشرة سنة. إذن فليس من الغريب أن يكون عمر صاحبنا سبعة عشر عاماً حين تجريد الحملة، وحينئذ يقرب مولد محمد بن القاسم من سنة اثنتين وستين بعد الهجرة لأن الحملة مذكورة في حوادث سنة تسع وثمانين في تاريخ الكامل لابن الأثير.

فتح السند:

أ- أسباب الحملة:

من أعظم الدواعي لتجريد هذه الحملة أن أهدى إلى الحجاج ملك جزيرة الياقوت[8] نسوة ولدن في بلاده مسلمات، ومات آباؤهن وكانوا تجاراً، فأراد التقرب بهن إليه، فعرض للسفينة التي كن فيها قوم من ميد الديبل في بوارج فأخذوا السفينة بما فيها، فنادت امرأة منهن وكانت من بني يربوع: يا حجاج، وبلغ الحجاج ذلك فقال: يا لبيك، فأرسل إلى داهر يسأله تخلية النسوة، فقال: إنما أخذها لصوص لا أقدر عليهم[9] ولك أن تفهم من هذا مدى استخفاف (داهر) برجاء الحجاج ، ففي الوقت الذي تسلم فيه خطاب الحجاج كانت

النسوة في سجن عاصمته (ألور)[10]، ويفهم من كلام فرشْته أن داهرا أراد تحدي الحجاج حين كتب هذه العبارة في رده إلى الحجاج:

(هذا العمل الذي أتاه قوم ذو بأس وشكيمة تستحيل عقوبتهم مهما بذلت من جهود) ففهم ناس منه أنه يعني القرصان، لكن هيهات أن ينخدع الحجاج بذلك، فسعى إلى عبد الملك ليأذن له بفتح السند. وأورد أكبر شاه خان النجيب آبادي تحقيقاً علمياً رد فيه على من قال إن داهراً كان صادقاً في أن القرصان هم الذين نهبوا النساء المسلمات، فقال: (لم يعرف من القرصان شيء قبل تجوال البرتغاليين في المحيط الهندي، ولم يسمع شيء عن لصوص في بحر العرب في القرن الأول، ولم يكن القرصان يستطيعون التجوال في البحار في ذلك الوقت ونهب ثمان سفن إلا إذا كانوا على اتفاق تام مع أحد الممالك الكبرى)[11].

وهناك سبب آخر لم يفطن إليه أحد من المؤرخين إلا (أكبر شاه خان النجيب آبادي) ربما يعد سببا له أهميته في ذلك الوقت فقد (ولى الحجاج على السند (مكران) سعيد بن أسلم بن زُرْعة فخرج عليه معاوية بن الحارث الكلابي العلاقي وأخوه محمد فغلباه على البلاد، فأرسل الحجاج مجاعة بن سعيد التميمي مكانه، فغلب على الثغر، وفتح فتوحات بمكران ومات بعد سنة من ولايته[12] فقيل فيه:

أما مشاهدك التي شاهدتها إلا يزينك ذكرهن مجاعا[12]

ثم استعمل الحجاج بعد مجاعة محمد بن هارون بن زراع النمري، فطارد العلاقيين خمس سنوات وأخيراً قبض على معاوية بن الحارث العلاقي فحز رأسه وأرسله إلى الحجاج، لكن أخاه محمداً أفلت من يده والتجأ مع خمسمائة مقاتل سنة خمس وثمانين إلى (داهر)، وكان ينظر إلى فتن المسلمين الداخلية بعين الارتياح، لأنها كانت تحقق مطامعه الواسعة في المستقبل العاجل، فاستقبله داهر استقبالاً حافلاً بكل تعظيم وإجلال واستخدمه عنده، فلما علم الحجاج بذلك كتب إلى عبد الملك يستأذنه في فتح السند، لكن الخليفة توفي قبل أن يوافق على اقتراح الحجاج[13].

يفهم مما سبق أن الحجاج اضطر اضطراراً إلى فتح السند ووضع حد لتلك المؤامرات التي كان يدبرها (داهر) في الخفاء، ويخطئ من يظن أن السند إنما فتحت لمآرب أخرى، والحال أنها بلاد جدبة لا يرجى خير جزيل من وراء استعمار أراضيها.

محمد بن القاسم الثقفي

- 2 -

السند قبل الفتح الإسلامي(*):

كانت البوذية الدين الرسمي لملوك السند منذ قديم العهد ومن هؤلاء كان ملك ذو شوكة وعظمة ومطامع واسعة في البلدان المجاورة يدعى (سهرش) غزا فارس بجيش جرار يقوده بنفسه، لكن الحظ خانه في اللحظة الأخيرة، فهوى قتيلا في ساحة الحرب، وولى جيشه الأدبار، فاستولت فارس على مقاطعتي بلوجستان ومكران التابعتين للسند، ثم خلفه ابنه (ساه سي)، وكان له وزير يسمى (بدهي من) له نائب يدعى (رام)، وقد استخدم الأخير بَرْهَمنيا شاباً يسمى (چچ بن سلائج)، ولما لم يعش (رام) كثيراً بعد ذلك خلفه (چچ) في منصبه، فاتصل بالملك رأساً ووثق علائقه بالملكة (سبه ديوي تهاراني) وتطورت مع مرور الزمن إلى غرام عنيف كان من نتائجه الآثمة أن اغتالت الملكة زوجها وأعلنت بين الشعب أن

---

*) المنهل، المجلد 3 جـ 12.

الملك أوصى بالعرش لچچ بن سلائج، لأنه لم يكن له خلف، فلم ينبس أحد ببنت شفة، خوفاً من بطش الملكة به، وهكذا تربع ذلك الشاب على عرش السند. فخرج الملك من دين بوذا إلى برهمن، وأنجب من الملكة ولدين (داهرسية) و(داهر) وابنةً سميت (ماي)، واستبقى (چچ) الوزير (بدهي من) لأنه لم يعارض في زواج (چچ) بالملكة (سبه ديوي تهاراني)، ولما رأى (چچ) الحرب الضروس التي قامت بين المسلمين والأكاسرة استرجع المقاطعتين المغصوبتين لأن فارس كانت يومئذ في شغل شاغل حتى عن التفكير في حرب جديدة مع ملك السند، بل رأت من بعد النظر وسداد الرأي أن تتقرب إلى السند وترتبط معها بمعاهدة صداقة، فنفذت فكرتها دون إبطاء، لمصالح كثيرة ترجع عليها بالنفع الجليل.

ثم خلف الملك (چچ) بعد موته أخوه (چندر) وكان يدين بالبوذية، فحكم ثمان سنوات بين إعجاب الشعب به وحبه له، وبعد موته استولى على كرسي الحكم في (أَلُور) داهر، الابنُ الأصغر لچچ، وفي مدينة (بَرْهمن أباد): (راج بن چندر). وهكذا انقسمت مملكة السند إلى حكومتين، تدين الأخيرة بالبوذية والأولى بالبرهمنية والبوذية معاً، أو نصيف البوذية إن جاز هذا التعبير، لكن (راج) لم يدم طويلاً في حكمه، فسرعان ما اختطفته المنية، وهو لم يحكم أكثر من عام واحد ،

واستولى على مملكته (دهرسيه)، فغزا الممالك القريبة ووطد حكمه بعزم وثبات.

وكانت أخته ماي قد جاوزت الثلاثين من عمرها وهي لم تتزوج بعد، فأراد أن يزوجها بحاكم في جبل (كيكانان)، فاستشار أخاه داهراً في ذلك، لكنه قبل أن يجيبه عقد على شقيقته واقترن بها بعد أن استشار وزيره (بدهي من)، فثارت ثائرة أخيه، وجرد جيشاً جراراً على مدينة ألور وحاصرها، لكنه هلك بالجدري قبل أن يتمكن من إسقاط (ألور)، فرأى داهر الفرصة سانحة لأن يضرب ضربته القاضية ويستولي على ملك أخيه (دهرسيه)، فكان له ما أراد في زمن وجيز، لكنه قبل أن يبرح (برهمن أباد) فوجئ بحملة قاسية على عاصمته (ألور) من حاكم (كيكانان)، فأظلمت الدنيا في عينيه وأيقن بذهاب ملكه، فهرع إلى وزيره يستنجده ، فطمأنه الوزير وأشار إلى محمد بن الحارث العلاقي[15] أن يقف في وجه حاكم (كيكانان) مع فرسانه الخمس مائة البواسل، ويحول بينه وبين دخوله إلى ألور ، فصمد هذا البطل مع فرسانه العرب في وجه الحاكم كالصخرة وأرغمه على الرجوع، وعلى حين غرة حمل على جيشه في الهزيع الأخير من الليل مع فرسانه حملة ألقت الرعب والهلع في جيش الحاكم، فولوا هاربين بعد أن أسر منهم عشرات الألوف، فأجازه الملك داهر على ذلك بأن استوزره

وضرب على أحد وجهي سكته اسمه (چچ نامة آينة حقيقة نمار - تاريخ السِّند للمعصومي).

الفتح:

أسهب بعض المؤرخين في ذكر دقائق الفتح إسهاباً مملاً يحمل الإنسان على الشك في صحته، لأنك حين تقرأ حادثة الفتح في فتوح البلدان ترى الكلام كافياً وافياً لا إفراط فيه ولا تفريط، ينقع غلة الباحث، وهو أقرب المؤرخين إلى ذلك الفتح، وإذا بمؤرخ آخر مثل المعصومي يفصل في أقل حادثة فيسرف في التفصيل، كأنما التقط مناظر الفتح في شريط السينما يعرضه عليك، لا يفوته شاردة ولا واردة، وبينه وبين ذلك الفتح قرون من السنين الغابرة، فمن أين تسربت إليه تلك الدقائق يا ترى؟! أم أنها من قبيل الأساطير، ومعاذ الله أن تسمى الأساطير تاريخاً.

كتلك الأسطورة التي ذكرها أحد المؤرخين وهي أن محمد بن القاسم حين فتح السند أسر ابنتين لداهر فأرسلهما هدية للخليفة، فلما أراد أن يجامع الخليفة إحداهما امتنعت وقالت: أن محمد بن القاسم قد واقعها من قبل، تشفِّياً منه لأنه قتل أباها، فأمر الخليفة بمحمد بن القاسم أن يوضع في جلد بقرة مسلوخ ويؤتى به إلى الخليفة، لكنه توفي قبل أن يصل إلى الخليفة.

وهذه الخرافة لا يؤيدها أي تاريخ معتبر، إنما ساقها المؤرخ ليدل على سعة اطلاعه، وهذا المرض ابتلي به كثيرون من المؤرخين الأقدمين أيضاً، فهوميروس حين أرخ حرب طروادة أدخل فيها ما شاء له خياله أن يدخله فيها، وكذلك ملحمة الهنود (مهابارت) وشاهنامة الفردوس ملئتا خرافات وأساطير لا تحصى..

محمد بن القاسم الثقفي(*)

- 3 -

لكن من المؤرخين العصريين فئة تجنبت كل شيء يشتم منه رائحة الأساطير، بل شنت غارة شعواء عليها ودحضتها بحجج دامغة، ومن الأقدمين أيضا مؤرخون كالبلاذري وغيره محصوا الوقائع التاريخية بميزان المنطق السليم، ولم يجرفهم تيار الإسهاب الممل والتطويل الكاذب فيما لا يرجع علينا بأية فائدة، ونحن نورد هنا ما كتبه البلاذري عن فتح السند بأكمله، لأنه في نظري أحسن من كتب عن ذلك الفتح، فلا حاجة لأن أكرر كلامه بأسلوبي.

قال البلاذري: ثم ولّى الحجاجُ محمدَ بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل في أيام الوليد بن عبد الملك، فغزا السند، وكان محمدٌ بفارسَ، وقد أمره أن يسير إلى الري، وعلى مقدمته أبو الأسود جهم بن زخر الجُعْفي، فرده إليه، وعقد له ثغر السند، وضم إليه ستة آلاف من جند أهل الشام، وخلقا من غيرهم، وجهزه بكل ما احتاج إليه حتى الخيوط

*) المنهل، المجلد 4 جـ 9 – 1339هـ.

والمال، وأمره أن يقيم بشيراز حتى يتتام إليه أصحابه، ويوافيه ما أعدّ له، فعمد الحجاج إلى القطن المحلوج فنقعه في الخل الحاذق ثم جفّفه في الظل فقال: إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق، فانقعوا هذا القطن في الماء ثم اطبخوا به واصطبغوا، ويقال: إن محمداً لما صار إلى الثغر كتب ضيق الخل عليهم، فبعث إليه بالقطن المنقوع في الخل، فسار محمد بن القاسم إلى مكران ثم أتى (قَنْزَبور) ففتحها، ثم أتى (أرمائيل) ففتحها. وكان محمد بن هارون بن ذراع قد لقيه، فانضم إليه وسار معه، فتوفي بالقرب منها، ثم سار محمد بن القاسم من أرمائيل ومعه جهم بن زخر الجعفي فقدم الديبل(16) يوم جمعة، ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة فخندق حين نزل الديبل، وركز الرماح على الخندق، ونشر الأعلام وأنزل الناس على راياتهم، ونصب منجنيقاً تعرف بالعروس، كان يمد فيها خمسمائة رجل، وكان بالديبل بدٌّ(17) عظيم، والصنم بدّ أيضاً، وكانت كتب الحجاج ترد على محمد، وكتب محمد ترد عليه بصفة ما قِبَلُه واستطلاعِ رأيه فيما يعمل به، في كل ثلاثة أيام(18)، فورد على محمد من الحجاج كتاب أن: انصب العروس، واقصر منها قائمة ولتكن مما يلي المشرق، ثم ادع صاحبها فمره أن يقصد برميته للدقل الذي وصفت لي. فرمى الدقل فانكسر، فاشتد طرة الكفر من ذلك، ثم إن محمداً ناهضهم وقد خرجوا إليه فهزمهم حتى ردهم،

وأمر بالسلالم فوضعت وصعد عليها الرجال، وكان أولهم صعوداً رجل من مراد من أهل الكوفة، ففتحت عنوة، ومضى محمد يقتل من فيها ثلاثة أيام، وهرب عامل داهر عنها، وقتل سادني بيت آلهتهم، واختط محمد للمسلمين بها، وبنى مسجدا وأنزلها أربعة آلاف.

قالوا: وأتى محمد بن القاسم (البيرون) وكان أهلها بعثوا سمينين منهم إلى الحجاج فصالحوه، فأقاموا لمحمد العلوقة وأدخلوه مدينتهم، ووفوا بالصلح ، وجعل محمد لا يمر بمدينة إلا فتحها ، حتى عبر نهراً دون (مهران)، فأتاه سمينة سربيدس فصالحوه عمن خلفهم ، ووظف عليهم الخراج، وسار إلى (سهيان) ففتحها، ثم سار إلى (مهران) فنزل في وسطه، فبلغ ذلك داهر واستعد لمحاربته، وبعث محمدُ بن القاسم محمد بن مصعب بن عبدالرحمن الثقفي إلى (سدوسان) في خيل وحمارات، فطلب أهلها الأمان والصلح، وسفر بينه وبينهم السمينة فأمنهم، ووظف عليهم خَرْجا، وأخذ منهم رهناً إلى محمد، ومعه من الزُّط[19] أربعة آلاف، فصاروا مع محمد، وولى (سدوسان) رجلاً، ثم إن محمداً احتال لعبور مهران، حتى عبره مما يلي بلاد راسل ملك قصبة من الهند على جر عقده، وداهرُ مستخف به لاه عنه، ولقيه محمد والمسلمون وهو على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاترة، فاقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع بمثله، وترجل داهر وقاتل، فقتل عند المساء، وانهزم

المشركون، فقتلهم المسلمون كيف شاؤوا، وكان الذي قتله في رواية المدائني رجلاً من كلاب، وقال:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا	**ومحمد بن القاسم بن محمد**
أني فرجت الجمع غير مُعرِّدٍ	**حتى علوتُ عظيمهم بمهند**
فتركته تحت العجاج مجَدّلاً	**متعفِّر الخدين، غير مؤيد**

فحدثني منصور بن حاتم قال: داهر والذي قتله مُصوَّران ببروص وبديبل، وابن طهفة مصوَّرٌ بقَنْد، وقبره بديبل.

وحدثني علي بن محمد المدائني عن أبي محمد الهندي عن أبي الفرج قال: لما قتل داهر غلب محمد بن القاسم على بلاد السند، وقال ابن الكلبي: كان الذي قتل داهر القاسم بن ثعلبة بن عبدالله بن حصن الطائي قالوا: وفتح محمد بن القاسم راوور عنوة، وكانت بها امرأة لداهر، فخافت أن تؤخذ فأحرقت نفسها وجواريها وجميع مالها[20]، ثم أتى محمد بن القاسم (بَبْرهمناباذ) العتيقة وهي على رأس فرسخين من المنصورة، ولم تكن المنصورة يومئذ إنما كان موضعها غيضة، وكان فَلُّ داهرٍ ببرهمنا باذ هذه فقاتلوه، ففتحها عنوة، وقتل بها ثمانية آلاف وقيل ستة وعشرين ألفاً، وخلف فيها عامله وهي اليوم خراب.

محمد بن القاسم الثقفي(*)

- 4 -

وسار محمد يريد (الرُّور) و(بَغْرور) فتلقاه أهل (ساوندرى) فسألوه الأمان فأعطاهم إياه، واشترط عليهم ضيافة المسلمين ودلالتهم، وأهل ساوندرى اليوم مسلمون، ثم تقدم إلى (بسمد) فصالح أهلها على مثل صلح ساوندرى، وانتهى محمد إلى (الرُّور) وهي من مدائن السند وهي على جبل، فحصرهم أشهراً، ففتحها صلحا على أن لا يقتلهم، ولا يعرض (لِبَدِّهم)، وقال: ما البدُّ إلا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس، ووضع عليهم الخراج بالرور، وبنى مسجداً، وسار محمد إلى السكة، وهي مدينة دون يباس ففتحها، والسكة اليوم خراب، ثم قطع نهر يباس إلى الملتان، فقاتله أهل الملتان، فأبلى زائدة بن عمير الطائي وانهزم المشركون فدخلوا المدينة، وحصرهم محمد، ونفدت أزواد المسلمين فأكلوا الحمُر، ثم أتاهم رجل مستأمن، فدلهم على مدخل الماء الذي منه شربهم، وهو ماء يجري من نهر لَسْجد

---

*) المنهل، المجلد 4 جـ 10/ 1352هـ.

فيصير في مجتمع له مثل البركة في المدينة، وهم يسمونه البلاح، فغوّره، فلما عطشوا نزلوا على الحكم، فقتل محمد المقاتلة وسبى الذرية، وسبى سدنة البدّ، وهم ستة آلاف، وأصابوا ذهبا كثيراً، فجمع تلك الأموال في بيت يكون عشرة أذرع في ثماني أذرع، يلقى ما أودعه في كوة مفتوحة في سطحه، فسمّيت الملتان بيت فرج الذهب ، والفرج الثغر. وكان بدّ الملتان بدّاً تهدى إليه الأموال، وينذر له النذور، ويحج إليه السند، فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده، ويزعمون أن صنماً فيه هو أيوب النبي صلى الله عليه وسلم.

قالوا: ونظر الحجاج فإذا هو أنفق على محمد بن القاسم ستين ألف ألف، ووجد ما حمل إليه عشرين ومائة ألف ألف ورأس داهر.

ومات الحجاج، فأتت محمداً وفاتُه، فرجع عن الملتان إلى الرور وبَغْرور، وكان قد فتحها فأعطى الناس، ووجه إلى البليمان جيشا فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة، وسالمه أهل سرست، وهي مغزى أهل البصرة اليوم، وأهلها الميد الذين يقطعون في البحر، ثم أتى محمد الكيرج، فخرج إليه دوهر فقاتله، فانهزم العدو وهرب دوهر ويقال قتل، ونزل أهل المدينة على حكم محمد فقتل وسبى، وقال الشاعر:

نحن قتلنا داهراً ودوهراً   بالخيل تردي منسراً فمنسرا

ومات الوليد بن عبدالملك، وولي سليمانُ بن عبد الملك

فاستعمل صالح بن عبدالرحمن على خراج العراق، وولّى يزيد بن أبي كبشة السكسكي السند، فحمل محمد بن القاسم مقيداً مع معاوية بن المهلب فقال محمد متمثلاً:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر[21]

فبكى أهل الهند على محمد وصوّروه بالكيرج فحبسه صالح بواسط فقال:

فلئن ثويت بواسط وبأرضها ... رهن الحديد مكبلاً مغلولا

فلرب فتيةِ فارس قد رُعْتها ... ولرُبَّ قِرْن قد تركت قتيلا

وقال:

لو كنت جَمعتُ القرار لوطِّئتْ ... إناثٌ أعِدّتْ للوغى وذُكور

وما دخلت خيلُ السكاسكِ أرضنا ... ولا كانَ من عك عليٌّ أمير

ولا كتُ للعبد المزونيَ تابعا ... فيالكَ دهرٌ بالكرام عثور.!

فعذبه صالح في رجال من آل أبي عقيل حتى قتلهم، وكان الحجاج قتل أخا صالح، وكان يرى رأي الخوارج، انتهى.

أسباب سقوط الدولة الإسلامية في الهند

تنحصر أسباب سقوط تلك الدولة العظيمة التي شادها محمد بن القاسم في وسط الهند في ثلاثة عوامل:

أولاً : لم تكن الأراضي المفتوحة من الخصب كباقي أراضي الهند.

ثانياً: لم يمدد الخليفة الجيش الماكث في الهند برجال بعد مقتل محمد بن القاسم، فأصبح في ضعف مستمر يوماً بعد يوم.

ثالثاً: كانت الفرقة الهندية الباسلة (راجبوت) في عنفوان بأسها وقوتها ، وفي نفس الوقت ما كان قائد المسلمين في البسالة والشجاعة كمحمد بن القاسم رحمه الله رحمة واسعة.

الاستخفاف المسرف في هجاء ابن الرومي(*)

ما الذي أقوله في شعر ابن الرومي بعد أن أشبعه أمثال العقاد والمازني بحثا؟ وما الذي يستطيع أن يقول فيه أي شخص بعد أن ألفت في شعره وحياته كتب، وتناوله كبار أدباء العربية بالتحليل في نفسيته وشخصيته ومنشأ أطواره الغريبة؟.

إنما لكل مفكر - مهما كبر أو ضؤل - حظ من رأي يتكون لديه بعد طول القراءة والاستقصاء، وهو لفكرته - سواء أكانت صائبة أم خاطئة - متعصب جد التعصب، وهذا التعصب يخوّل له عرضَها على جمهور القراء والأدباء، وعلى من هم أطول منه باعاً في عالم التفكير وطرق عرضه، وعلى هذه الدعامة أتقدم إلى جمهور القراء بهذا الرأي.

كلنا نسخر وكلنا نستهزئ، ولكن قليل منا الذي يستخف، نسخر ونستهزئ لأنا نروّح عن أنفسنا - كما يقول

---

*) المنهل، المجلد 4 ج 7 = 1359هـ

علماء النفس - لأن السُّخْرَ والاستهزاء لا ينشآن عن نقص في طبيعة النفس، إنما يصدران عن كبت العواطف، ليشبعا شهوة التشفي أو الثأر، إننا قد نكره رجلا ولا نستطيع عليه، فنقسو عليه أشد القسوة ونعامله أردأ معاملة... لكن أين..؟! في خيالنا فقط، لنروّح عن عقلنا الباطن الذي تحال إليه كل القضايا البطيئة التنفيذ، بخلاف ذلك المستخف فإنه يشعر في قرارة نفسه بنقص ما، فينتقص كل أحد ليتساوى معه في نقصه، ولذلك يشعر المستخف بفرح وجذل عندما يشاهد إنساناً مّا يهوي من ذروة الفضيلة إلى درك الرذيلة طبعا ومن غير قصد، وعلة ذلك النقص النفسي أو التركيبي الذي جبلت عليه تلك الشخصية، وليس الإنسان العادي يتجاوز الاستهزاء إلى السخف أبداً، وهذا مقدمة لابد منها لتفهم سر استخفاف ابن الرومي وإسرافه فيه - في نظري طبعا -.

كان في تطير ابن الرومي نوع من الاستخفاف بالناس، لأنهم يسببون له الضر والبلاء، ويجلبون له الشؤم والمصائب، وهو يستخف بالناس من حيث لا يشعرون، يستخف بأعدائه وهاجئيه، وأسلوبُه في الهجاء ليس كأسلوب الشعراء الآخرين، فهم يهجون الرجل من حيث شكله وخلقه ونفسيته لا أكثر ولا أقل، لكن ابن الرومي يهجو الرجل من حيث هو إنسان، فهو يترفع من أن يشترك مع الناس في نسبتهم إلى أبيهم آدم.

ولم يكن هذا أسلوب أحد من الشعراء في الهجاء، فهجاء المتنبي في كافور هجو شخص صادر عن سخط عادي بصورة عادية، وقد يكون هجو المتنبي ألذع وأسخر، وهجو جرير والفرزدق أبشع وأهتك، لكن هجو ابن الرومي أسخط، مسرفٌ في السخط إلى حد يستحيل فيه إلى الاستخفاف المر بالمهجو.

وهو عندما يهجو لا يقف عندما يقف عنده الهجاؤون، إنما يتعداهم إلى القدح في نسب المهجو وحسبه، وهو لايتوانى أيضا أن يفضل عليه الحيوانات جمعاء، لم يكن هجاؤه لزيد أو لعمرو أو لفلان فحسب، إنما كان للناس طرا.

فكان نتيجة ذلك أن اضطر الناس إلى كرهه والنيل منه وغمط حقوقه، فأخملوا ذكره، وقدموا عليه من الشعراء من هم دونه، فابتعد هو بدوره عن الناس ساخطاً متبرماً، وفضل الانفراد والعزلة على الاجتماع والاختلاط بالناس، ومن هنا كان منشأ تطيره الغريب، لكن كان هذا الابتعاد والتطير سر نبوغه وعبقريته، لأنه أنشأ مدرسة فريدة من نوعها لم يسبق لها مثيل في الشعر العربي، هي مدرسة الافتتان بالمناظر الجذابة واستيحاء مفاتنها...

الأمم المستعربة في القرن الأول الهجري(*)

أساورة الفرس

إن هؤلاء الفرسان (الأساورة) ليشبهون إلى حد عظيم فرسان انجلترا [The knights]، في استعدادهم على قدم وساق عند داعي الوطن إلى ميادين الهيجاء، وهم جماعة من فرسان بواسل كرسوا حياتهم للدفاع عن بيضة الوطن في طليعة الجيوش العادية المعهودة، ولهم مكانتهم السامية في قلوب سواد الشعب والمؤرخين ككماة حماة أبطال يهبون إلى الذود عن الوطن المحبوب، فقد نعتهم ابراهيم البيهقي بالأبطال الأساورة(22).

ووضعهم الجاحظ في مصاف الملوك ، يأمرون وينهون فيطاعون ويهابون، ولا يقوم بأمر من الأمور الجليلة في إيوان كسرى إلا أبناؤهم، فهم الموكلون بستائر كسرى والسير معه أنى ذهب ومشى، ويجلسون معه على مائدته الخاصة التي لا

---

*) المنهل، المجلد 4 جـ 12/ 1359هـ.

تضم سوى ثلاثة مع الملك: موبذان موبذ، والديربذ، ورأس الأساورة[23]، كسرى نفسه ما كان يراهم سوى آلة تحطم وتدمر من دون وعي أو شعور، وليس لهم من الأهداف في الحياة سوى طاعتهم لكسرى، وخضوعهم لأوامره خضوعا أعمى: (فكان ملوك فارس إذا أنفذوا جيشا أنفذوا معه وجها من وجوه كتابهم، وأمروا صاحب الجيش أن لا يحل ولا يرتحل إلا برأيه، يبتغون بذلك فضل رأي الكاتب وحزمه، ثم يقول الملك للكاتب المندوب للنفوذ معه: (قد علمت أن الأساورة سباع الإنس، وأنه لا عقوبة عليهم إلا في خلع يد من طاعة وفشل عن لقاء أو هرب من عدو، وما سوى ذلك فلا لوم عليهم فيه، وعليك أعتمد في تدبير هذا الجيش)[24].

وهؤلاء هم (الأبناء)، تلك النجدة الفارسية التي طردت الحبش من اليمن وأقرت سيف بن ذي يزن على ملك أجداده، تحت رعاية كسرى أنوشروان، بعد أن تشرد حقبا من الزمن، واستنجد بقيصر ملك الروم في استرداد ملك آبائه، فلم يجبه لطلبه إلا مرسلُ هذه النجدة: كسرى.

ولعلك تتعجب كيف سمحت لنفسي أن أصفهم بكلمة الأبناء؟ وماذا أقصد بها؟ فمهلاً، إنها ليست لي، وليس لي حق في استعمالها، إنما استعملها أديب كبير منذ قرون عدة في مؤلفه الشهير الأغاني، ولا ضرر على أبي الفرج الأصفهاني في استعمال هذه الكلمة برغم غموضها، لأنه فسرها في موضع

آخر بقوله: (الأبناء هم الفرس الذين قدموا مع سيف بن ذي يزن، وكانوا يسمون بصنعاء: بني الأحرار، وباليمن: الأبناء، وبالكوفة : الأحامرة، وبالبصرة: الأساورة، وبالجزيرة: الحضارمة، وبالشام: الجراجمة)[25].

وربما يقول معترض: كيف تعزو إلى هؤلاء الشجاعة والإيثار، وهم الذين خانوا وطنهم فيما بعد، بل تجاوزوا ذلك، بأن اشتركوا مع المسلمين في حصار حصن الفرس على قول بعض المؤرخين أو في حصار تستر اعتماداً على رواية المدائني؟[26] فأجيب على ذلك بأن اعتناقهم الإسلام ما كان عن خوف أو جبن أو طمع في الأسلاب والغنائم لا أكثر، إنما كان خالصا لوجه الله فحسب، فالأساورة آخر من يَرهَب في الأمة الفارسية من أي عدد كان، لما تقدم لك من خبر بطولاتهم واستخفافهم بحياة الذل والضيم، بعد أن كانوا في مصاف أبناء الملوك الأكاسرة، وإليك حادثة إسلامهم:

في السنة السابعة عشرة بعد الهجرة اضطر يزدجرد أن يتحصن بإصطخر، بعد أن كابد الهزيمة وراء الهزيمة، وقد ضيقت عليه جيوشهم الخناق بقيادة أبي موسى الأشعري، فتراجع القهقرى، وترك السوس وتستر وغيرها في يد الأقدار، ثم المسلمين يفعلون بها ما يشاؤون، فلما استقر به المقام في إصطخر جمع فلول جيشه المهزومة، ورأى من أصالة الرأي أن يرسل إلى كل من السوس والهرمزان نجدة تصد هجمات

المسلمين، ريثما يتمكن من تكوين جيش قوي يرد غائلة العدو، فوجه إلى السوس نجدة تحوي ثلاثمائة فيهم سبعون رجلا من الأعيان والعظماء تحت قيادة سياه الأسواري، وأذن له أن ينتخب من كل بلدة يمر بها من يراه صالحا لحمل السلاح، فمضى سياه الأسواري حتى نزل الكلبانية، وفي نفس الوقت كان أبو موسى الأشعري قد أجبر أهل السوس على إلقاء السلاح وطلب الصلح ، ثم كان قد توجه إلى تستر يريد فتحها ، فلما رأى سياه شدة بأس المسلمين تحول إلى مكان بين رامهرمز وتستر، وكان تقدم المسلمين مستمراً (فدعا سياه الرؤساء الذين كانوا خرجوا معه من أجهان فقال: قد علمتم أنا كنا نتحدث أن هؤلاء القوم أهل الشقاء والبؤس، سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم في إيوانات إصطخر ومصانع الملوك ويشدون خيولهم بشجرها ، وقد غلبوا على ما رأيتم وليس يلقون جندا إلا فلّوه، ولا ينزلون بحصن إلا فتحوه، فانظروا لأنفسكم، قالوا: رأينا رأيك، قال: فليكفني كل رجل حشمه والمنقطعين إليه، فإنه أرى أن ندخل في دينهم. ووجهوا شيرويه في عشرة من الأساورة إلى أبي موسى فقال: إنا قد رغبنا في دينكم فنسلم على أن نقاتل معكم العجم، ولا نقاتل معكم العرب، وإن قاتَلَنا أحدٌ من العرب منعتمونا منه، وننزل حيث شئنا ، ونكون فيمن شئنا منكم، وتلحقونا بأشراف العطاء، ويعقد لنا الأمير الذي هو فوقك بذلك، فقال أبو

موسى: بل لكم ما لنا وعليكم ما علينا. قالوا: لا نرضى، وكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب فكتب إلى أبي موسى: أعطهم ما سألوك، فكتب أبو موسى لهم فأسلموا(27).

هذه قصة إسلامهم روى أكثرها ابن جرير في تاريخه، وهي وإن كانت تدل بنفسها على أن إسلام الأساورة كان عن خوف ويأس، فإن لدينا أدلة واضحة تدعم نظريتنا السابقة، ولست أؤاخذك إن أسأت الظن بهم، فقبلك أساء المسلمون بهم الظن بادئ الأمر، ثم لما شاهدوا استبسالهم في حصار تستر تعجب قائدهم أبو موسى الأشعري ، فقال لقائدهم سياه: (ما أنت وأصحابك كما كنا نظن)، فأجابه سياه قائلاً: (أخبرك بأنه ليست بصائرنا كبصائركم، ولا لنا فيكم حُرَمٌ نخاف عليها ونقاتل، وإنما دخلنا في هذا الدين في بدء أمرنا تعوذاً، وإن كان الله رزق خيراً كثيراً)(28). ولدينا دليل آخر على صدق نيتهم وخلوص طويتهم ، وحبهم للإسلام والمسلمين، وحبهم للنبي العربي صلى الله عليه وسلم ورهطه وعشيرته، وذلك أنهم بعد أن وضعت الحرب الفارسية أوزارها (صاروا إلى البصرة فسألوا: أي الأحياء أقرب نسبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقيل: بنو تميم وكانوا على أن يحالفوا الأزد فتركوهم وحالفوا بني تميم)(29).

ولك أن تستنج من ذلك ما شئت لكنني أنا في نفسي - أرى أن هذا عمل لا يقدم عليه إلا من كان قلبه مفعماً بحب

الإسلام، وعمل ليس له دافع سوى الإخلاص والحب لأهل المودة والقربى، وهكذا تم إسلامهم أولاً، ثم سكناهم بالبصرة ثانياً، ثم تعريبهم أخيراً، واندماجهم في الشعب العربي المسلم بالعراق مهد المدنية الإسلامية الزاهرة في ذلك الوقت..

الرواية الأدبية وحاجتنا إليها(*)

كتب صديقنا الأستاذ أحمد رضا حوحو بحثاً وافياً عن القصة بنوعيها، وقد تضمن بحثه القيّم دعوة إلى مزاولة كتابة القصة في الحجاز، لتتبوأ مكانتها بين القصة العالمية، وليكون للحجاز أدب قصصي حديث، وهي فكرة جيدة، وحسبها من النضج أنها قد وصلت إلى دور التنفيذ على صفحات الجرائد والمجلات، وقد مارسها نفر من الكتاب في مقدمتهم الأستاذ حوحو، لكن بقي شيء أردنا أن نخوض فيه - لمساس الحاجة إلى ذلك - وهو القصة المطولة ، وبالأحرى الرواية، فمجال القصة محدود لا يتسع لبسط الفكرة وتصويرها بما يشفي الغليل.. وصدرها أضيق من أن يسمح بالإسهاب وبالتطويل، ونجور على القصة حقا أن نطلب منها أكثر مما وضعت له، من التصوير الخاطف وإجمال الفكرة في قالب غير قالب المقالة.

والرواية هي وليدة القصة، لأن كل قصة صالحة لأن تكون رواية، ولكن الرواية لا تصلح في حال من الأحوال لأن تكون قصة، لأنها حينئذ تفقد التفاصيل والتصوير المسهب، فتمسي آلية لا جمال فيها ولا رواء، والذين يختزلون الرواية، لايدعون

*) المنهل، المجلد 5 ج 6 = 1360هـ.

بل ولا يستطيعون أن يزعموا بأنهم قد وضعوا الرواية في قالب القصة، إنما هم يقدمون فكرة عن الرواية قد تكون أقرب إلى البحث التحليلي منه إلى القصة..

وتمتاز الرواية عن القصة بأن الأولى تأخذ بمجامع القلوب، وتستهوي القارئ بحيث لا يستطيع تركها في نصفها أو ربعها، ولا يطمئن جانبه حتى يأتي على كلها، فعلى ذلك الرواية أنصح لإبراز فكرة يريد الكاتب أن يرى تأثيرها أشد وأمضى في القارئ، ومن السهولة بمكان ترسيخ أي فكرة في ذهن القارئ أثناء انكبابه على الرواية بواسطة إيحاء نفسي يتتبعه الكاتب بتكرار المناظر والصور التي توحي بالفكرة المراد إيحاؤها.. فمثلاً، أي كاتب لبق يستطيع إبراز الألم النفساني الذي يعانيه المذنب في مقالة أو قصة، كما فعل ذلك الروائي الروسي ديستويفسكي في رواية (الجريمة والعقاب)؟ وأي كاتب مقالة استطاع أن يدمي القلوب بما يلاقيه البؤساء من الجوع والفاقة والحرمان أكثر من روايات فيكتور هيجو الفرنسي، وراشد الخير الهندي؟ اللهم إلا المنفلوطي والرافعي، فقد كانت مقالاتهما أشبه بالروايات في التصوير منها بأدب المقالة، وأين كبار علماء النفس وكتبهم الضخام من تصوير الروائي الأمريكي[30] في روايته (البطل) لعاطفة الأبوة الخالصة والبنوة المحضة؟ وأين مقالات الناقمين على المدنية الأوروبية من روايات (إميل زولا) في تصوير الواقع من

الرذائل التي تزخر بها أنحاء العالم الأوروبي أجمعه؟ بل وأي نقد يتحمله الإنسان بنفس الطرب الذي يقابل به نقد الروايات العنيف؟ وبالطبع ليس من المفهوم أننا نقصد الروايات الإجرامية والغرامية الفاحشة، التي لا تكتب إلا لجلب الفوائد المادية، ولاستمتاع القراء الدنيء في مقابل ثمن زهيد.

كل ذلك يدعو الإنسان إلى التفكر في الرواية التي لا يمكن الاستغناء عنها لأمة تريد أن يكون لها كيان من الأدب الحي، وبالأخص إن مما يدعو الإنسان إلى الاهتمام بالرواية قيامها بتوجيه أفكار الأمة حسب البرامج المتفق عليها، حيث لا يتسنى ذلك للمفكرين إلا بأن يمسكوا بأيديهم زمام تفكير أمتهم، وذلك بأن يستولوا على جميع ما تطالعه أمتهم من غث وثمين فيلقنوهم المبادئ التي تتماشى مع واقع الأمة وحالتها، وفي مقدمة هذه المطالعات وأكثرها انتشاراً وأوفقها في تلقين المبادئ الروايات التي يطلع عليها سواد المتعلمين، فهي على ذلك سلاح ماض لمحاربة الرذائل والدنايا، وطريقة من أنجع الطرق في بث الأفكار والمشاغل المختصة بالأمة..

وفي كلامنا هذا رد على الذين يقولون: إن الرواية الأجنبية قد قطعت شوطاً مهماً في حلبة الرقي ولا نستطيع لحاقها في حال من الأحوال، فإذا وضعنا هذه القاعدة المنطقية نصب أعيننا فإننا سوف نكف عن الكتابة والاشتغال بالأدب أجمعه لأن الغرب قد تقدمنا في ذلك أيضاً...

ومن الخطأ - تماماً - أن نعول على الرواية الغربية أو الشرقية الأجنبية أيضاً، لأن لكل أمة أمراضاً اجتماعية وخُلقية تختص بها، وكما أنه من الحماقة علاج الزكام (بلزقة الكوك) فكذلك من الخرق محاربة رذائل الشرقيين بعقول الغربيين الذين لا يفهمون من نفسيات الشرقيين قليلاً ولا كثيراً، ولم يكتبوا إلا لأبناء جلدتهم ومواطنيهم.

وأعجب شيء في الموضوع أن كثيراً من إخواننا الكتاب والأدباء ينظرون إلى الرواية كسقط المتاع، لا يشتغل بها من ينتسب إلى العلم والفضل والأدب، ويرى الاهتمام بها منقصة ومعرة، وهذا ما جعل بين الأدباء وبين عامة القراء بوناً واسعاً، بل جعل أكثر القراء يبغضون الأدباء وينعتونهم بالصلف والكبرياء.. والحق أنهم متعجرفون لأنهم يسقطون عامة القراء من حسابهم، ويكتبون لفئة قليلة ويتجاهلون العدد الضخم من القراء الذين ينشدون المتع السهلة التي لا تكلف القارئ كبير عناء في التفكير، وبذلك انفصمت عرى الروابط الوثيقة بين القراء والكتاب، فضعف تشجيع القراء للأدباء، وكان رد فعل ذلك الصدوف توتراً في عزائم الآخرين وتثبيطاً في هممهم مما أداهم إلى الانحراف شيئا فشيئا عن الأدب والكتابة، وهذه جناية الكتاب على أنفسهم وعلى القراء في آن واحد، وهي جناية لن تغفر لأناس أخذوا على عاتقهم خدمة المجتمع وتوجيه أفكاره وميوله إلى كل ما فيه خير هذه البلاد وصالحها..

كل ذلك دعاني إلى كتابة هذه العجالة لتكون تقدمة لكتابة وافية في الدعوة إلى ممارسة الرواية التي يقوم بها إخواننا الأدباء الذين يجدون في أنفسهم الرغبة إلى أن يكون للحجاز أدب روائي راق..



الأفغاني ينتقد قصتيه(*)

القصتان المطبوعتان أخيراً باسم (ما يعجز الشيطان عن منحه) و(الأرقاء)

طبعي أن أول ما يتبادر إلى الذهن هذا السؤال : هل يستطيع الكاتب أن ينتقد عمله أم لا؟ أما أنا فأرى أنه يستطيع لأنه أبصر بمواطن أخطائه من غيره.. إلا أنه يعجز العجز كله لو أراد أن يستجلي الفكرة المرتسمة في أذهان قرائه عند قراءة عمله.. سواء أكان موقعها في نفوسهم حسناً أو سيئاً.. ومن هنا بدأت أهمية العثور بالنسبة للكاتب على ناقد يبصره بموضعه من الجادة المستقيمة.. كأهمية الدليل في متاهات البيد سواء بسواء، ويستلزم في هذا الدليل أن يكون له من خبرته العريقة وتمرسه بمهنته ما يشجع التائه على الاعتماد عليه، والركون إلى قدرته .. فيما لو غطت الرمال مخارج السبل.. فلو كانت معرفته لعمله وإخلاصه لصناعته موضع شك لفضل التائه أن يضل ضالاً أبد الدهر على أن يجازف بالاهتداء إلى الطريق القويم..

---

*) المنهل، المجلد 6 محرم وصفر جـ - 1375هـ.

وكما أن هذا الدليل يحتاج إلى حزم وبتٍّ مبادرين إذا ما وضح السبيل، فكذلك الناقد.. إذا ما تبين له وجه الحق ، عليه أن يطرح الجبن والتشجيع جانباً.. ليقول كلمة الحق في نفاذ حد السيف.. وليغضب من شاء بعد ذلك أن يغضب إذا ما رضي الحق..

ولْأعد بعد هذه الجولة القصيرة إلى نقد كتابي.. وأول ما أؤاخذه على نفسي هو أني لم أمهد للقصة الأولى بتفسير يحدد هدفها ويبين موضوعها من الفن القصصي.. فهي قصة رمزية وإن اختلط مفهومها على معظم القراء.. فظنها البعض قصة واقعية، وعلامات التعجب والاستنكار تعلو وجوههم لهذا الخروج على منطق الواقع.. وظنها الآخرون أسطورة.. بينما الحقيقة كانت لا هذه ولا تلك فهي قصة رمزية.. وكل جملة فيها ترمز إلى شيء خفي مستتر..

وأنا وإن كنت لا أرى أن أكشف الغطاء عن جميع رموزها إلا أني أود أن أضع في يد القارئ بعض المفاتيح، لعله إذا ما عاد إلى قراءتها مستمهلاً أن يتمكن من فك بعض طلاسمها..

فالأستاذ علي مثلا يرمز إلى هذا الشرق القوي بأخلاقه ومثله العليا والحصين بقناعته الراضية.. والعفيف مع ذلك في كل ما يتعلق بالمادة.. بينما الشيطان في هذه القصة يرمز إلى أساليب الغرب الماهرة في سلخ هذا الشرق من شرقيته..

ليصبح لا شرقياً ولا غربياً.. والقصة على العموم هي قصة اليوم.. قصة هذا الصراع الناشب بين الشرق والغرب.

ومما أؤاخذه على نفسي في هذه القصة أيضاً.. أني لم أختر لها أسلوبا ملائما في التعبير.. فقد كان ينبغي أن أعمد إلى الأسلوب المجنح في هذه القصة.. لأتمكن من إشاعة الجو الرمزي فيها.. بدل أن أصوغها في هذا القالب الجامد من الأسلوب الجاف..

أما ما أؤاخذه على نفسي في القصة الطويلة (الأرقاء) فهو غلبة الكسل عليّ فيما كتبت، فقد كان ينبغي أن أستطرد في بعض المواضع فلم أفعل ذلك إيثاراً للراحة والكسل.. على الجد والعمل.. كما أنني لم أعتن بالأسلوب أحيانا طلبا للراحة والكسل.. فياله من كسل مقيت..

من ذكرياتي في لندن(*)

ومن أطرف ما علق بذهني من ذكريات هو أني عندما هبطت هذه البلاد.. وركبت القطار - من فولكستون إلى لندن - وكنت حينئذ معتمداً بما حصلته من اللغة الانجليزية طوال دراستي لها خلال السنوات العشر المواضي.. وقد كنت أعتقد أني قد بلغت بها من الحذق والمهارة بحيث أني أستطيع أن أطوّعها لجميع أغراضي.. فزين لي لقائي مع أول انجليزي كان يشاركني المقعد أن أدهشه بما أعرفه من دقائق لغته.. فلم ألبث أن وجهت إليه سؤالا مفاجئا عن الساعة.. كم كانت في ذلك الوقت.. فبانت الحيرة على وجه الرجل.. ثم ما أسرع أن استرد هدوءه وهو يقول كالمعتذر.. آسف فإني لا أعرف غير الانجليزية لساناً.. وكنت كمن فجع في قصور ظنها بناء مشيداً.. فإذا هي رمال تنقلها الريح من سبيل إلى سبيل..

وأدركت تماما كم تبعد الشقة بين هذه اللغة التي تستظهر كلماتها عن الكتب غيباً.. وعن هذه اللغة وهي تنبض بالحياة في أفواه أهلها.. نطقاً وأداء ..

---

*) المنهل، المجلد 6 ربيع الأول - 1375هـ.

ولم يكد المقام ليستقر بي في محطة لندن.. حتى تدفق لساني بسيل من الأسئلة.. أين أجد فندقا قريباً..؟ وأضعت من زمن اللنديين ساعة قبل أن يجدوا بين كلمة هوتيل التي كنت أنطقها على لغة الشرقيين وبين نطقهم لها صلة وعلاقة.. ولست أدري.. لم لا يعودنا أساتذة اللغة الانجليزية في الشرق على النطق بها على الوجه الصحيح..؟ بدلاً من هذا الخليط المستهجن الذي لا هو بالانجليزية ولا هو بلغة أخرى من لغات هذا الشرق القاصي أو الداني..

ومن أشد المشاكل التي تعرضت لها في لندن طويلاً.. هي مشكلة الطعام.. فبينما نحن الشرقيين لا نجد إلى الاستغناء عن الأرز والخبز في طعامنا سبيلاً.. يكاد يخلو الطعام في أوروبا عن هذين الصنفين تماماً، وقضيت ما يقارب الأسبوعين، وأنا أروح وأغدو خميص البطن لا أجد إلى الشبع سبيلا.. فلا أكاد أكظ بطني بطعامهم حتى يذهب بعد قليل وكأنه لم يكن أكلاً وطعاماً.. إنما كان ماء قراحاً وشراباً..

واهتديت بعد لأي إلى بعض المطاعم الباكستانية والهندية.. لعلي أصيب من طعامهم ما يرد علي جوعي الملح.. إلا أن جنيها بأكمله كان يتسلل من كفي قبل أن أجد إلى الشبع والامتلاء سبيلاً..

ومضى ما يقارب الشهر وأنا تحدثني نفسي يومياً بالعودة من هذه البلاد التي لا يعرف أهلها الشبع ولا

الامتلاء.. وبينما أنا ذات يوم ماض في سبيلي إذ لمحت على اليمين لوحة.. ولم تكن هذه اللوحة تختلف عن غيرها من اللوحات في شيء.. عدا الرخص الواضح.. فيما يقدم هذا المطعم من مآكل.. وشجعني ما لحظته من هبوط أسعار المطعم على ولوجه.. ولتكن هذه المحاولة كأخواتها السابقات وما أصابها من الخيبة والفشل.. وما لبث المطعم أن ابتلعني كحوت كبير.. وإذا بي أجد نفسي في ذلك النوع من المطاعم التي يقوم فيها العملاء بخدمة أنفسهم.. ولما كنت في تلك الأيام مازلت في جهل بأسماء الأطعمة التي تقدم في مطاعم لندن.. فقد عولت لأقلد في الطلب من سوف يسبقني من المترددين على هذا المطعم.. ولم ألبث طويلا حتى نفذت ما كنت قد قررته سابقاً.. وما كاد صاحبي الذي كان يتقدمني يحمل صحفة وصحنين فارغين حتى قلدته على الفور والتو، وما كان أسرع التقاطي للكلمتين اللتين انحدرتا من فمه عليّ بحمْل.. ولم يلبث صحناي أن عجا بطعام كثير.. فاسترقت إليها نظرة على الرغم مني وأنا ماض.. فلاحظت أن في الصحن الأول إداماً مكوناً من قطعة لحم كبيرة تخالطها بعض المكرونة.. أما الآخر فقد فاض عن قطعة ضخمة من البطاطس المفرومة.. وتناول صاحبي بعد ذلك صحنا من الحلوى.. فصنعت مثل ما صنع.. ومالبثت أن اتخذت مقعدي خلف مائدة مطاولة.. وقد مد فوقها سماط نقي نظيف.. ولا تسل عن دهشتي البالغة

حين وجدت الإدام لذيذ النكهة.. طيب المذاق مشبعا فعلمت أن اللندنيين يملؤون بطونهم بطاطس مفرومة ومسلوقة، كما نملؤها نحن خبزاً وأرزاً..

ولأستميح القارئ أن أنقله من جو الطرافة إلى جو الجد والرزانة.. فمما لحظته أن الحضارة الأوروبية قد استذلتها الآلة.. فناسها ليسوا ناساً.. وأهلها ليسوا أهلاً.. وإنما هم آلات صغيرة تدور من غير وعي ولا تدبير .. فالأوروبي لا يكاد يختلف عن آلته المحطمة هذه.. فهو مثلها قد فقد المثل العليا.. فلا رحمة في دنياه.. ولا شفقة في عالمه.. فهو يخترع القنبلة إثر القنبلة ليدمر بعضه بعضاً.. وليس ذلك اليوم ببعيد حين يأتي فيه كل غربي على أخيه.. وفي هذا اليوم سيعطي الشرق المسلم مشعل الهداية وعصا القيادة..

هذا الإسلام الذي حمل سابقاً، وسيحمل لاحقاً إلى البشرية إيماناً هو الغاية في نفاذ المنطق.. ومجتمعا هو الغاية في توفير العدالة والكرامة والسلام.. أجل لقد فشل الغرب في أن يقود هذه الحضارة فما أحرانا أن نتعظ لئلا نكون مثله خيبة وفشلاً..

فإن نحن استعرنا من الغرب آلته فأصبحنا مثله أنانيين أثريين، ونبذنا ما يحضنا الدين عليه من اتباع المحبة والإيثار.. فلن يكون نصيبنا بعد هذا المدى الطويل خيراً من نصيب هذا الغرب..

أفترانا قد هيأنا أنفسنا لحمل هذه الأمانة الثقيلة مستقبلاً.. أم أننا عن أداء رسالتنا العظمى لاهون.. وعن فهم هذه الحقيقة ساهون..

في القصة(*)

قال صديقي مرة وهو يحاورني: إن ما تكتبه ليس قصصاً، لأن الجيد منها نكاد نشم من بين سطوره رائحة الأرض التي تجري حوادثها عليها، وأنا أوافق الصديق على أن كثيرا من القصص الجيدة نتمنى أن نعيش فيها طويلاً وأن نقرب من أرضها كثيراً، وأن نشاركها وجدانيا حيناً، والمذهب الطبعي في الفن يقرر أنه ليس من سبيل إلى فهم الشخصيات والحوادث فهما منطقياً ما لم نتبصر أثر الوراثة والبيئة، سواء أكان الغرض من ذلك درسها أو إبداعها، ويقول فيلسوف الفن والجمال (تين – Tain) إنه ينبغي أن ندرس الجنس والبيئة والزمن لشخص ما قبل أن نشرع في درسه[31].

ولكن ما كل الكتاب يرتضون هذا المذهب دون غيره، فإميل زولا وهو الحارس الأمين لهذا المذهب الطبعي لم يكن في رأي النقاد أكثر من (طبعي واقعي)[32] في كثير مما كتب، بل إنني لأقرأه في (أسرار مرسيليا)[33] فأجد نفحات

---

*) المنهل، المجلد 7 جـ 6 جمادى الآخرة 1366هـ.

من تلك الرومانتيكية الحالمة الهادئة، وأرى صورا تنبع من الذات، وليست من الموضوعية في شيء.

أما القصص التي تكتب على صورة اعترافات فهي تخضع للرومانتيكية، كلما كان الاهتمام منصرفاً إلى بطل واحد كان المقصود أن تترك في نفس القارئ حزنا مترقرقاً حائراً[34]، وتقرب من الواقعية كلما اتجهت النية إلى توزيع الحياة في أشخاص القصة على حد سواء .

وأغلب ما تجد النفس المنطوية غذاءها المفضل في رومانتيكية تخف وتشتد حسبما يكون الانطواء في النفس، صعوداً وهبوطاً. وأغلب ما تميل إليه النفس المنبسطة واقعية ممزوجة بالفكاهة، وهذا لا يعني استحالة أن تجمع النفس الانطواء والفكاهة أحياناً، وأن يكون للنفس المنبسطة نصيب من رومانتيكية خفيفة، وإطلاق حكم عام على النفس البشرية تجمع بينها الشتيت تحت لافتات محدودة، أمر لا يصح أن يصدر من عاقل..

وبعد: فالشيء الذي لا نستطيع إغفاله ولو سترنا العين بالأيدي، أن الكتاب الذين استطاعوا ان يقفوا في وجه الزمن ساخرين يعيينا أن نكبل أيديهم إلى مذهب من المذاهب الفنية قديماً وحديثاً ..

ملاحظة سريعة:

وفي ختام هذه المجموعة من مقالاته نحس أنه يمكننا إبداء الملاحظ التالية:

1 - سيطرة الموضوعية على هذه المقالات، فهو لا يترك لمشاعره الذاتية أن تطغى على ما يكتبه أو توجه قلمه ووجدانه.

2 - إنه صاحب منهج يلتزم به، وأمانة علمية وفكرية، فهو ينسب الأفكار إلى أصحابها، ويحرص على توثيق المعلومة التاريخية بذكر مرجعها.

3 - البعد عن الترهل اللفظي، والحرص على نفي الزوائد.

4 - الإحساس بحبه الصادق لوطنه المملكة العربية السعودية، فهو ينافح عن مستواها الأدبي، ويسهم في بناء كيانها الفكري، ويدعو لها دفعاً للأخذ بأسباب النمو والتطور في جميع مجالات الفكر والأدب والثقافة.

5 - كما نلحظ سعة اطلاعه على الأدب العربي القديم والحديث، ومتابعته للآداب الأجنبية أيضاً، والإفادة منها، بل ودعوة غيره للإفادة منها شريطة الحفاظ على الشخصية الذاتية.

ثانياً: مُتَرجماته

صفحة من الأدب الهندي

أبو الفيض(*)

شاعر الامبراطور (أكبر) وإحدى مفاخر عصره الزاهر

كان الشيخ مبارك قاطناً في (اكره) حينما ابتسم له الحظ، وانفتح في بستان أمله أول زهرة، وأثمرت شجرة أمانيه أول ثمرة، فكانت زهرة رائعة تضوع رياها إلى قطّان الهند أجمعين، فأرقصتهم طرباً، وثمرة يانعة ذاق لذتها كل متأدب،

*) المنهل، المجلد 3 جـ 2 = 1357هـ.

فأصبح لا يجد لغيرها لذة. نشأ وترعرع هذا الشاعر الموهوب الفذ، تحت ظل أبيه الشيخ مبارك في ضيق من العيش وضنك. ودرج من العش الذي كان كله فقراً وبؤساً، يحس ساكنوه بلذعه وألمه، وناهيك بعداوة الأعداء، وحسد الحساد في هذا الوقت العسير.

فلما وصل إلى ربيع شبابه، وصلت معه مواهبه إلى ريعان شبابها، ومع أنه كان بارعاً في العلوم التي تلقاها من أبيه، وماهراً، لكنه خلق للشعر، وخلق الشعر له، كما ظهر أخيراً، مع أن أباه لم يقرض شعراً طول عمره.

هذا العبقري الذي روى الله قلبه وعقله بمعين الشاعرية، أنَّى لعقله أن يؤتي ثماراً غير الشعر، وأنَّى لقلبه أن يميل لشئ سوى الشعر؟

كان بإمكان (أبي الفيض) أن يذهب إلى الإمبراطور (أكبر)، فقد كان يعلم أن من دأبه طلب كل عالم وشاعر وأديب، والسعي وراء كل ذي رأي صائب وعقل راجح، لكنه كان أبياً، أبى أن يطرق باب الملك، بل رأى أن على الملك أن يطرق بابه.

وأخيراً فاح شذى إحدى الأزاهير التي كانت تتساقط من شاعريته العظيمة، حيناً بعد حين، فوصل عبيرها إلى ذلك الأنف الذي كان يقدر لكل ذي فضل فضله.

صدر الأمر السامي الامبراطوري إلى حاكم (أكره) بإرسال (أبي الفيض) إلى مقر الإمبراطور بدون تأخير أو إبطاء ولم تكن الليلة قد أشرفت على النصف الباقي ، حتى كان الجند على باب دار الشيخ مبارك يطلبون ابنه، فطفق يفهمهم أنه غائب عن الدار لكنهم ألحوا في استدعائه، إذ كانوا يظنون أن أباه (مباركاً) أخفاه عنهم كما لقنهم أعداء الشيخ...

ويالهم من بله أغبياء! فهم لا يدرون هل هم يقبضون على مجرم أثيم، أم هم يقطفون الزنبقة التي عشقها (أكبر) وأحبها.

وكاد الأمر يصل إلى إهانة الشيخ، لولا مجئ (أبي الفيض) وقد هاله وأذهله وقوف الجند على بابه، وتشاجرهم مع والده الرؤوف.

وُقِفَ (أبو الفيض) خارج الشباك الذهبي، الذي كان يحيط بعرش الإمبراطور فرآى أنه لا يمكنه أن ينشد قصيدته من مكان وقوفه، والبون بينه وبين العرش بعيد، فما وسعه إلا أن ارتجل هذه الأبيات:-

«أيها الملك! إني خارج القفص، فأرجو السماح بدخولي فيه، لأني (درة) فريدة وما مأوى (الدرة) إلا القفص».

طِلَّسْم الحياة(*)

للكاتب العبقري بشير أحمد

«جاشت هذه الخواطر التي نترجمها فيما يلي بصدر الكاتب بعد مشاهدته لذلك اللوح الفني الرائع المسمى (الخدع الخلابة الضائعة) من عمل الرسام البارع (شارلجلير) الفرنسي وقد أخذ رسم هذه التحفة الفنية من متحف اللوفر بباريس، أكبر متحف في العالم» المعرِّب.

أهذه كانت كل الحياة؟ » زفر الهرم زفرة طويلة حين رآى فلك آماله تبرحه الهوينى وهو جالس على شاطئ حياته، وبرزت الجملة الآنفة من أعماق جنانه، كبروز الفقاقيع إلى سطح الماء بعد غرق شئ فيه كان الوقت غسقاً، وكانت الحياة أيضاً في غسق!..

كان هلال اليوم الأول يطل على السماء، وكانت الطيور سابحة في الفضاء البعيد، تتلمس طرقها إلى أوكارها، والشمس قد غربت..

*) المنهل، المجلد 3 جـ 4 - 1358هـ.

هذا الهلال الضئيل الذي طلع ليرسل ضوءاً خافتاً على مقدم الظلمات، ثم يتلاشى سناه، فإذا الظلام البهيم يخيم على كل شئ - هو أيضاً سيتوارى..!

كذلك أومض، في قلب الهرم، نور عاطفة ضئيلة، ردحاً من الزمن.. فقد ولت أيام الشباب ، حتى هذه الشيخوخة وذكرياتها أيضاً ستلفظ أنفاسها الأخيرة، وحينئذٍ ستفتح روحه جناحيها، لتطير إلى عشها الأخير!..

أي حياتي! أهذه التي كُنت؟!» ثم هز رأسه مرة أخرى وقال: «إن تكوني خدعة أو لم تَكوني فإن الشباب - حتماً - خدعة».

نطق الشيخ الهرم بهذا، ثم لاذ بالصمت، فلم يعد يسمع منه شئ. ثم طفق يحدق في الماء الذي كان يلمس أطراف السفينة، وقيثارته تلك رفيقته في المسرات، كانت طول عمره، صباح مساء، شريكته في طلب آماله، هي أيضاً أفلتت من يده وسقطت.

كانت السفينة على وشك الإقلاع، وكان العجوز حزيناً ذاوياً، لكن من كان بالسفينة كان مرحاً فرحاً؟ من كانت تلك الأطياف؟ لماذا كان العجوز مهموماً؟! أذواه فراق هؤلاء؟! كلا!، بل كان يروم أن يتواروا عن بصره، وأن تنمحي ذكرياتهم من حياته الباقية، كما يمحى الحرف المغلوط من القرطاس!، لأنها هي تلك الخدع الجميلة التي كانت تظلل قلبه أيام شبابه

اللذيذة، والغشاوة التي كانت على عينيه. فكان يخال أن نظراته ترسم الحقيقة: «فالذي أراه له وجود كذلك في الأصل»[35] صبغ نفسه بصبغة الدنيا، وعبر عن هذه الصبغة بجمال الحياة، وحينئذ أقامت له الدنيا سلسلة من حلقات المسرات، فنشر سرور الصبح نوره الكاذب على الآفاق، ثم نشرت سحابة الملاذ سرادقها الفخم في الفضاء!.

انقشعت الغمامة.. فعلق قوس قزح الطيش أرجوحته في السماء، فمضى يوم الحياة في لهو ولعب، فلما صحا الجو أزف مساء الحياة!

وهناك علم الشيخ أن تلك ما كانت إلا خدع الشباب، فكانت أشياء ظهرت بغير مظهرها الحقيقي.

وكان مدار القلب عليها، فلما انكشف أمرها أجفلت هي أيضاً عنه .

القوة والمال والملاذ والكبر والحرية والنجاح والحسن والعشق والعقل والعلم والاعتقاد انكشف غطاؤها جميعاً!..

كيف خال القلب الحياة وكيف وجدها ؟!..

الحياة طلسم يتحطم دون ريب ، ولكن ما أحلاه للإنسان الشجاع، وما أعظم انكساره وانهزامه إزاء هذا الرجل!...

واليقظة للعاقل أكبر معوان، والموت للحياة الحقيقية ليس بموت..!

صفحات من الأدب العالمي

حسناء تركستان ذات الرائحة الذكية(*)

- 1 -

إن قصة غرام إمبراطور الصين «چن لنغ» بحسناء تركستان: المسلمة «سيانغ في» لذائعة الصيت في التاريخ، ومما لا ريب فيه أنه قلما توجد حادثة في تاريخ العالم مثل هذه ذات الأثر العميق.

كانت (سيانغ في) حليلة حاكم (زنغارية) خواجة خان في شرق تركستان على جانب عظيم من الحسن والجمال. تتضوع من عرقها رائحة زكية سميت لأجلها (سيانغ في) أي (ذات الرائحة الزكية)، فكاد هذا اللقب الفاتن أن يقضي على اسمها الحقيقي (سليمة).

---

*) المنهل، المجلد 3 جـ 5 - 1358هـ.

هام بها إمبراطور الصين (چن لنغ) بعد أن وقف على جمالها الساحر من أفواه الجُوّاب والتجار، وهي منه على بعد ثلاثة آلاف ميل، مع أنه لم يرها قط. فبذل جهوداً جبارة للحصول عليها مرتين، لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح، ولم يحظ بالمحبوبة.

في سنة 1758م شق زوج (سيانغ في) خواجه خان عصا طاعة الإمبراطور ورفع علم العصيان عليه، وطرد الجيوش الصينية من (زنغاوية) بمعاونة أخيه برهان الدين خان، واقتضت المقاطعات الأخرى أثره، فأعلنت الحرب على الإمبراطور، فلم يحرك ساكناً إلا بعد مضي زمن مديد على الثورة. وأخيراً جهز جيوشه بقيادة صديقه في صباه (جاوهوي) للزحف على تركستان بعد أن أوصاه بأن لا يدخر وسعاً في الحصول على (سيانغ في)، فحمل (جاوهوي) على كشغر وبارقندوختن، بجيوش يربو عددها على أربعمائة ألف محارب على حين غرة ، فدافع خواجة خان عن نفسه دفاع المستميت ما يقرب من سنتين، ثم انهزم، ففر إلى مقاطعة بدخشان، ودخل عاصمتها مع أخيه برهان الدين وزوجته (سيانغ في) فآواهم سلطانها، ثم خانهم خيانة مخجلة، إذ حبس (سيانغ في) بقصره - وكان أحد الهائمين بها - وحزّ رأس الأخوين - اللاجئين وبعث بهما إلى الفاتح إرضاءً له وزلفى إليه، لكنه خيب آماله حين طلب منه (سيانغ في) امتثالاً لأمر

الإمبراطور، أو بعبارة أدق أنه هدده بالزحف عليه بجيوشه إذا لم يجبه، فبعث بها إليه ومعها أربع جوار راغم الأنف، خوفاً منه وهيبة.

وفي فبراير سنة 1760م إرتحل جاوهوي مع سجينته الحسناء إلى بكين، ولم يدخر وسعاً في الاحتفاء بها وبتوفير جميع وسائل الراحة لها ، فقد هيأ لها عجلات أربعاً ضخاماً، وأمر سائقيها بالتؤدة والسكينة في السير، وأرسل في صحبتها جميع المسلمين الأسرى في حرب زنكارية، بعد أن أصدر أمراً بالعفو عنهم جميعاً تسلية لها، لكنها بالرغم من هذه الراحة الوفيرة لم تذق طعاماً طيلة أيام ثلاثة أثناء السفر، لما كانت فيه من حزن وكمد، بل جف دمعها لبكائها المستمر، وعزمت على الانتحار، لكن جاوهوي زعم لها أن زوجها لم يقض عليه سلطان بدخشان ، بل هو حي يرزق في حراسة الجيوش الصينية، وسيرجع إليه الإمبراطور ولايته عن قريب، فكانت (سيانغ في) هدف هذه الخدع مدة ستة أشهر حتى وصلت بكين (الآن پيپين)، وكان الإمبراطور في استقبالها على الجسر الشهير (لوكاو چاو).

أسرف الإمبراطور في النعم التي أسبلها على قائد جيوشه الفاتح جاوهوي جزاءً وفاقاً لأعماله وخدماته الجليلة، حتى سمح له بالمرور في الأسواق راكباً، وكان هذا شيئاً لا يتسنى إلا لأمراء العائلة المالكة، وأمر برسم صورته على لوح

وتعليقه في المتحف الملكي (سوكارنغ كو)، عدا الأراضي الواسعة والأموال الكثيرة التي وهبها له.

وأنزلت (سيانغ في) في القصر الملكي (يوان منغ يوان)، وفوض الاعتناء بطعامها وشرابها إلى شرذمة من أمراء مسلمين ذوي مكانة سامية، وفي اليوم التالي وقفت حسناء تركستان ذات الرائحة الزكية أمام إمبراطور الصين الذي خرق قلبه جواها، فما إن رأى حسنها الموهوب حتى غرق في شبه غيبوبة من الإعجاب، وأرخت (سيانغ في) جفنيها لائذة بالصمت إلا دمعتين ترقرقتا في عينيها، غير أنها كانت في وقفة إجلال وعظمة، أما أمناء القصر الذين أحضروها إلى حضرة الإمبراطور، فقد أمروها أن تتقيد بآداب القصر بأن تركع أمام الإمبراطور فرمقتهم بنظرات شزراء، ولم تأت شيئاً من ذلك، فوجه الإمبراطور خطابه إلى الأمناء قائلاً: (إن السيدة من قطر أجنبي، لا تفهم آداب القصر، فلذا اتركوها وشأنها).

ثم أراد الإمبراطور أن يدخل السرور عليها فقدم إليها حلياً ثميناً وجواهر نادرة، فلم تعره أدنى التفاتها، ولم تنبس ببنت شفة، بل أدارت وجهها استخفافاً واستحقاراً له ولهديته، فأمر الإمبراطور برجعها إلى مقرها، بعد أن تأثر كثيراً بجَلَد حسناء تركستان المظلومة وشجاعتها، وفهم أن هذه اللبوة الجريح لن يهدأ لها البال سريعاً، ثم طلبها بعد أيام قلائل فلم

تحد عن خطتها السلبية شروى نقير، وأخيراً استشار الإمبراطور أحد رجال حاشيته (هوشين) وكان عاقلاً داهية، فأجابه بعد أن فكر طويلاً: (جلالة الإمبراطور، هذه أميرة تركستان أبية الطبع، لا تستطيع القوة أن تثنيها عن عزمها، وإنها لا تخضع ولن تخضع إلا للحب وللحب فقط، فإن استطعت أن تخلق حولها جواً يوحي إليها أنها ليست غريبة عنه فحينئذٍ ربما تلقي سلاحها وتستسلم).

فسأله الإمبراطور: (وكيف يمكن ذلك؟).

فأجابه هوشين بعد أن تأمل قليلاً!: أن تعمر لها مدينة مثل مدينتها (عكسو) وتستعين في ذلك بجاوهوي فإنه مكث في بلدها زمناً ليس بالقصير، يستطيع أن يرسم خارطة مثل مدينتها، وسيبنيها المسلمون الأسرى وهم كثير، وفوق ذلك أن لا يكون في حاشيتها غير مسلم تركي، فسيخيل إليها آنئذٍ إنها في وطنها محاطة بأصدقائها فستستريح إليك وتطمئن لجانبك.

فوقع هذا الاقتراح من الإمبراطور موقع الرضا، وأمر في حينه ببناء مدينة بالقرب من بيكين على طراز المدن الإسلامية، تزدان بمساجد فخمة يزينها منارات ناطحات السحاب، وأسواق وحدائق على نمط مدن الأتراك المسلمين، وفي نفس الوقت استمر الإمبراطور في زيارته لها، وشيد لها جناحاً خاصاً في القصر الشهير (يوان منغ يوان) الذي بذل في بنائه أموالاً

طائلة، إذ جلب له بنّائين من أقاصي أوروبا وقد، وضع فوقه زجاجة من بلور هائلة مكورة كانت معجزة من معجزات الفن الصيني، وكانت تبدو من بعيد كأنها القمر في الليل، ترسل سناها إلى مسافة كيلومتر واحد، وكان سقف غرفة نومها مرصعاً بألوف من الجواهر تتألق مثل النجوم، وكانت كل هدية ترد الإمبراطور من جواهر نادرة يرسلها إلى (سيانغ في)، وقد جلب لها ثمانمائة قينة ذوات الأصوات الحسنة، مائة من الصين والمائة الأخرى من تركستان، والثالثة من البلدان الأوربية، ليسليها وينسيها ماضيها، لكنه لم يظفر بها.

صفحات من الأدب العالمي

حسناء تركستان ذات الرائحة الذكية(*)

- 2 -

كانت سيادة (سيانغ في) على فؤاد امبراطور الصين على أكملها، فكان لا يقيم للإمبراطورة (والدته) وزناً كبيراً، حتى إن حبه لحبيبته ساكنة جنوب الصين التي منحها لقب (ين في)، والتي حكمت على عرش قلبه ردحاً غير قليل من الزمن، قد تبدد وزال فلم يعد يشغل نفسه إلا في التفكر في خد تلك الحسناء (سيانغ في) الأسيل، فقامت ضجة حسان قصره اللاتي كن يعاملن معاملة سيئة منه احتجاجاً على انصرافه التام إلى (سيانغ في)، فأطلعن أزواجه حتى الخادمات أمَّه على حقيقة أمره وطلبن منها المعونة عليه، وقد كانت مطاعة من ولدها الإمبراطور طاعة عمياء، فطمأنت هذه الإمبراطورة

---

*) المنهل، المجلد 3 جـ 6 = 1358هـ.

العاقلة نساء القصر ووعدتهنَّ خيراً، برغم الصدمة العظيمة التي تحملتها على صدرها، لأنها لم تكن تطيق أن ترى ابنها مسجوناً في حب تلك المرأة المسلمة، وله تلك المنزلة الدينية العظيمة ، لكن ما الذي تستطيع عمله إن أبى نصيحتها وهو ذلك الرجل العنيد الذي لا يلين للقوة الغاشمة فيتحرج موقفها إزاءه، وفي ذلك ضربة قاضية على وقارها وعظمتها فعقدت النية على خلاص الإمبراطور من فخ حب (سيانغ في) بأي طريقة كانت.

وفي الوقت نفسه كمل بناء المدينة الجديدة على طراز مدينة (عسكو) الاسلامية، وبنيت منارة شاهقة بحذاء سور المدينة، فأخذ الإمبراطور معه (سيانغ في) ليريها المدينة الجديدة على المنارة في السحر الباكر وقت الصلاة الصبح، فرأت (سيانغ في) منظراً عجيباً من خلال الظلام المنجلي وخيوط الضياء الرقيقة السحرية، رأت بيوتاً على الطراز التركي يشع ضوء المصابيح الملونة المشعلة لتنويرها من خلال نوافذها، والمساجد الفخمة والقباب الضخمة والمنارات الناطحات للسحاب كلها كأنها بقعة من نور - ما هذا؟ أرؤيا في المنام؟! - وفي هذه اللحظة شق الفضاء صوت رخيم، هو صوت أول مؤذن في مدينة بيكن المقدسة في تاريخ الصين الطويل، رفع صوته بأذان المسلمين..

فالتفتت (سيانغ في) مغتبطة متعجبة إلى الإمبراطور،

وعلى شفتيها الرقيقتين ابتسامة الفرح وفي عينيها الجميلتين دموع مترقرقة! رفع المؤذن صوته باللهجة الحجازية الصرفة، ونزلت أدمع (سيانغ في) مدراراً فلما لفظ المؤذن بهذه الجملة - أشهد أن محمداً رسول الله - لم تطق كبح عواطفها، فخرجت صيحة من فمها ووقعت مغشياً عليها بقيت (سيانغ في) يومين اثنين في حالة يرثى لها، فكان الإمبراطور يكاد لا يبرحها، ثم ما كان ليشغلها شئ عن النظر إلى تلك المدينة الإسلامية وهي كالتمثال الحزين، ولم يخفف إلا قليلاً من وحشتها هذا الجو الإسلامي وتسامح الإمبراطور لها في الدين.

وهنا يقول الراوي الصيني إنها لم تعر الإمبراطور الصيني أدنى التفات برغم تقربه العظيم إليها إلى آخر حياتها، لكن من المؤرخين من يقول: إنها عندما رأت غدر سلطان (بدخشان) الفظيع بها حين أحبها وأراد هتك عرضها، ثم حين فتك بزوجها وأخيه وقارنت بينه وبين هذا الإمبراطور العظيم وعطفه السامي وأخلاقه العالية، الذي كان لا يأتي أمراً يجرح عواطفها، بل كان دائما يكلؤها بعين رعايته، ولم يكن أكبر حاكم في آسيا فحسب بل كان زعيماً دينياً، وبرغم ذلك منح هذه المرأة المسلمة كل حريتها في أمور دينها، بل أكثر من الحرية حين بنى لها مدينة إسلامية محضة وأسكنها ألوفاً من تركستان لهم من الحقوق مثل ما للصينيين، والذي كان لا يبخل أن يفدي قدمي (سيانغ في) بملكه فأثر فيها ذلك

كثيراً، حتى قبلت الزواج منه، ويقول بعض المؤرخين أن الإمبراطور (جن لنغ) أسلم فعلاً في طي الخفاء والكتمان.

كان الإمبراطور لا يستطيع مفارقتها، ولو لحظة بسيطة فغفل عن أمور ملكه بالمرة، وكان قد بنى قبل ذلك مدينة كبيرة إسلامية خارج بلدة (بيكن)، أما الآن فإنه قد طلب مهندساً من القسطنطينية ليعمر لها حماماً تركياً في العاصمة، وتوجد آثار هذا الحمام إلى الآن، وكان يجوز أن تغض الرعية نظرها عن هفوات الإمبراطور في إدارة الملك، أما تأييده للإسلام فهذا شئ لا تطيقه الرعية، ولذلك سرت فيهم موجة اشمئزاز حتى أن أفراد العائلة المالكة لا يستطيعون أن يروا مالكة قلب الإمبراطور امرأة غير صينية. خلافاً للتقاليد المقدسة عندهم، وفوق ذلك تكون مسلمة . كان الإمبراطور (جن لنغ) يعلم كل العلم أن عداوة (سيانغ في) قد دبت في قلوب أفراد العائلة المالكة، وإنهم يتربصون بها الدوائر، فعين لحراسة قصرها نحو ثلاثمائة جندي خوفاً من فتك الأعداء بها، وزيادة في الحذر كان يصحبها معه كلما أراد السفر..

حسناء تركستان ذات الرائحة الذكية(*)

- 3 -

مضت هكذا ست سنوات، ووالدة الامبراطور تتحين الفرص للفتك بسيانغ في، وصدفة أزف ذلك الاحتفال الديني العظيم الذي يؤدي فيه الامبراطور بعض الطقوس الدينية في دير يبعد عن مدينة (بيكن) ثلاثة أيام، فكان الجميع يستعدون لهذا الاحتفال العظيم استعداداً عظيماً، ثم كان من المحتم على الامبراطور بحسب التقاليد أن يعتكف في إحدى غرف هذا الدير مدة يومين لمكانته الدينية العظيمة في اعتقادهم، وفي اليوم الثالث يقرب القرابين أمام أعين السلطنة كلهم، ويعقبها بدعاء حار أن ينزل الخير والرفاهية على الشعب، فكان يتحتم على الامبراطور أن يؤدي تلك الطقوس، وكان يحظر على

*) المنهل، المجلد 3 جـ 7 = 1358هـ

(سيانغ في) أن تصحبه مراعاة لدينها الذي كانت تؤمن به إيماناً حاراً، فترك الامبراطور (سيانغ في) بعد أن اطمأن على استعداداته لحراستها، وهنا سنحت الفرصة للامبراطورة (نيو هولو)، فما أن برح الامبراطور (سيانغ في) حتى طلبتها مع حاشيتها المكونة من ثلاثين امرأة مسلمة، وكان من المستحيل أن لا تطاع الامبراطورة، فلبتها (سيانغ في) لكن حرسها قد داخله الريب فأسرعت ثلة من جنوده لإخبار الامبراطور.

رمقت والدة الامبراطور (سيانغ في) بنظرة الحقارة وسألتها:

- أأنت مسلمة؟

فأجابتها (سيانغ في):

- شكرا لله فإني مسلمة!

- إذن كيف استطعت أن تطئي قصر امبراطور الصين المقدس؟!..

- بل جيء بي إليه سجينة!

فاشتعلت الامبراطورة غيظا وقالت:

- أنت أيتها الوقحة، أتتطاولين عليّ بالكلام، ولست مجرمة لأنك نجست قصر الصين المقدس بقدميك فحسب، بل سحرت ابني، وأردت تحطيم امبراطورية الصين العظيمة، فبأي شيء تستطيعين دحض هذه التهم الموجهة إليك؟

فامتلأت عينا (سيانغ في) بالدموع وأجابت:

- أيتها الامبراطورة العظيمة، لم أذنب قط، فإن سمحت لي اليوم بالرجوع إلى بلدي لأرجعن!.

- أي نعم، أتركك ترجعين إلى وطنك، فتسحرين ابن من هنالك أيتها الساحرة.

- لست ساحرة، بل السحر كفر في ديني.

- أتتجرأين عليّ فتفندين حجتي...!

أمرت الامبراطورة خدمها أن يجلدوا كل واحدة من النساء المسلمات خمسين جلدة، ثم خاطبت (سيانغ في) قائلة:

- احذري أن تذكري دينك أمامي.

ثم شرعت تشتمها شتماً مخجلاً، فلم تطق (سيانغ في) وغلت في رأسها الغيرة على الإسلام، وصعد الدم التركي إلى وجهها الوضاح، فكانت من قبل واقفة خاضعة بين يدي الامبراطورة، لكنها الآن وقفت ناصبة رأسها وأخذت أناملها الرخوة تتلمس الخنجر بسرعة فائقة، لكنها مع الأسف جردت من سلاحها قبل المثول بين يدي الامبراطورة، فقالت متحدية مثل اللبوة الجريح:

- الزمي الصمت أيتها الكافرة الملعونة، إن كنت لا أستطيع أن أجيبك بلسان الخنجر، فإن بيدي قوة تستطيع أن تخنقك.

فأمرت الامبراطورة حشمها بخنق (سيانغ في) بالحجرة التالية فوراً، وأبلغت ثلة حرس (سيانغ في) الخبر إلى الامبراطور أنها طلبت من الامبراطورة إلى قصرها، لكنه ما إن سمع ذلك حتى دارت به الأرض، فما وسعه إلا أن يخالف تلك الطقوس، ويخرج من الدير وهو متزي بتلك الألبسة الدينية، وامتطى صهوة جواده، وانطلق يطوي الأرض طياً.

هنا تأمر الامبراطورة بقتل (سيانغ في) وفي نفس اللحظة يأتيها نبأ دخول الامبراطور المدينة، - يخرج قبل أن يقرب القرابين - فأمرت الامبراطورة بسد الأبواب، فما فتحت للامبراطور إلا بعد أن أنهكه الصياح، فدخل على أمه حيران شارد البال، وسألها عن (سيانغ في) فأشارت إلى غرفة دون أن تنبس ببنت شفة، فأسرع الامبراطور إلى الغرفة، وهنالك وجد (سيانغ في) جثة هامدة، وفي جيدها منديل حريري أبيض خنقت بواسطته، فسقط الامبراطور على جثتها مغشيا عليه، وفي اليوم التالي شيع جنازتها بحفاوة لم يشهدها تاريخ الصين مع مراعاة التقاليد الإسلامية، وصلى عليها مربي (سيانغ في) عالم الصين العظيم (ماجن سوئي) ودفنت في مقبرة (تنغ لنغ العظيمة التي شادها الإمبراطور لنفسه.

وكان من المستحيل أن ينتقم الامبراطور من أمه، فأذابته الهموم حتى أضحى عظما بدون لحم، ومع ذلك عاش عدة

سنوات بعد موت (سيانغ في) لكنه لم يرض قط أن ينظر إلى أمه، وأخيراً ترك الملك وشأنه وآثر حياة الزهد والعزلة، فكان يقضي أكثر أوقاته في مقبرة (سيانغ في) أو في تلك المدينة الإسلامية التي بناها لها خارج بلدة دسيكن..

طاقة من الشعر الياباني

فراشة الأزهار(*)

غادة ذاهبة والفراشة تسبقها حينا وتتخلف عها حينا آخر

●●●

أيتها الفراشة أتذهبين وراءها وهي سارقة الأزهار؟

●●●

أسقطت أوراق الزهر وقفلت طائرة إلى الغصن آه تلك كانت مثل الفراشة

●●●

ليت تلك الأيام تمضي ففؤادي دائماً يرنو إلى حب الركض وراء فراشتي

●●●

الفراشة تلهو كأنه لا توجد في هذه الدنيا عداوة ولا ضغينة

●●●

*) المنهل، المجلد 3 جـ 7 = 1358هـ.

هاهي الفراشة ترفرف   كأنها في هذه الدنيا   لا تريد شيئاً غيره

●●●

فوق الورد الأرجواني   فراشة بيضاء واقفة   لا أدري روح من تكون؟!

●●●

اليقظة اليقظة!!   سأجعلك رفيقتي   أيتها الفراشة النائمة!

●●●

أواه أيها الطير الحبيس في قفصك   من نظراتك الكئيبة   وحسدك اللاذع للفراشات

●●●

هاهو الهواء ساكن   وأجنحة الفراش المرفرفة   قد أوثقت هواءها

●●●

صفحات من الأدب العالمي

أنا وهي وآخر(*)

للكاتب الكبير بشير أحمد

كنت مستلقياً على مضجعي في غرفتي وحيداً عندما أطلت من خلال الستائر ثم ولجت غرفتي صامتة هادئة.

على جبينها خصلة من شعرها الجعد، وعلى وجنتيها غدائر منها تحكي الجداول، ووجه مستدير في لون الورد، وعينان عسليتان، وحاجبان زجان، وأهداب طويلة حادة، وأنف كباقة زهر صغيرة، وأسنان كأنما رُصّ لؤلؤ في صفين، وذقن كوجه القمر، والدل باد عينيها، الدعابة على وجهها، كأنها ملكة الأزاهير.

ومشيها ضرب من النغم جديد، فتوجهت إليّ، فأي العواطف اختلجت في صدري؟ بالأمس كنت جالساً أترنم بأبيات (حافظ الشيرازي):-

---

*) المنهل، المجلد 3 جـ 8 = 1357هـ.

«ذات غدائر منفوشة وجبين يبلله العرق وابتسامة دعابية»

«وملابس ممزقة تترنم بالشعر ممسكة بالقدح»

«وذات عيون العبهر الحادة تعلو شفتيها الزفرات»

«في الهزيع من الليل أتت إلى مخدعي ثملة وجلست»

«وقربت رأسها إلى أذني قائلة بصوت حزين»

«أيها العاشق! أغلبك الكرى؟!!!»

فكان المنظر نفسه سوى أنها لم يكن بيدها قدح . إنما كان شيئاً: انه مكور، لم يكن الوقت هزيعاً إنما كانت الظهيرة، لم يكن على فمها (العاشق) إنما كانت تردد كلمة (العاجز) وكانت تتمتم بأبياتي تكررها المرة بعد الأخرى، ولم يكن صوتها حزيناً بل كان رخيماً نشيطاً، هكذا ظللنا برهة نتنعم في ظلال (الحب)، وفي ذات يوم قفزت راكضة تقول: «بوجي... بوجي!!» أي: أمي. واتصلت بشخص آخر.

فن العمل(*)

لأندريه مورو

ما أكثر الأعمال التي تمتد إليها الأيدي، وما أعمها، ولكن ما أقل تلك الأصول التي تهدي إلى هذه الأعمال:

فأولاً: اختيار مهنة من بين مهن شتى..

ولما كان الذكاء البشري، والقوة الإنسانية محدودين ضعيفين، فلن يتم شيئاً من أراد أن يخوض كل شئ، ولعله قد مر بكم - يا قرائي - أناس يهدهدون أنفسهم، ويوهمونها قائلين : أستطيع أن أكون فناناً عظيما... باستطاعتي أن أصيب أعظم النجاح في عالم التجارة... لو خضت دنيا السياسة، لأصبت فيها توفيقاً مدوياً... ولتثق ولتطمئن أن شخصاً كهذا لن يكون إلا فناناً تافهاً، وتاجراً بائراً وسياسياً مدحوضاً...

ولقد علمنا نابليون أن فن الحرب، أن تكون أشد وأقوى

*) المنهل، المجلد 8 جـ 5.

من قريعك في اللحظة الحاسمة الفاصلة، أما فن الحياة فأن تنصب أمامك هدفاً معيناً، وأن تحشد جميع قواك للوصول إلى هدفك المرتجى... ويجمل ألا تترك اختيار الهدف لمحض الاتفاق والصدفة ، وألا ترجو خيراً في مهنة لم تخلق لها، فإذا اخترت فلا تغير ولا تبدل إلا أن يكون ذلك من فوق يدك ومن وراء طاقتك ، فإذا اعتنقت مهنة ما، فما برحت أمامك اختيارات وانتقادات، فما كل كاتب قادر على كتابة كل الروايات، وما كل مخبر بمستطيع أن ينهض بكل المهام، عليك أن تستعرض جميع مواهبك وتجاربك وأن تنتقي المهنة لتي يؤاتيك فيها النجاح أكثر مما عداها... هناك رجال يستمرئون الاهتمام بكل شئ ، فهم خير المحدّثين - إذا تحدثوا - وأبهج الصحاب، وأخف الرفاق، وهناك رجال يكرسون حياتهم لمهنهم، أولئك الذين يبرزون أحسن النتاج وأنضجه في زمن محدود معلوم، فليس أمامهم إلا هدف واضح بين ، وهم- كما ينعتهم الأمريكيون - ذو عقلية عملية موحدة، وقد يضجر هؤلاء من أنفسهم، ويضيقون ذرعا بجمودهم وهوسهم، ولكن ما تفتأ غاراتهم المتداركة أن تدك كل عقبة كأداء في طريقهم دكا.

ثانياً: ينبغي أن تثق في نجاحك..

إذا حددت الهدف تماماً، فتفاد ما عسى أن يواجهك من الحوادث، وإياك وأن تعزم أمراً، لا تدركه قوتك، فالخيبة تقود إلى فقدان الثقة بالنفس، وشل الحماس الدافق فيها، لقد كان

جوته ينصح الناشئين من الشعراء، أن يبدأوا بنظم المقطوعات القصيرة، قبل أن يتناولوا الملاحم الطوال، وإنه لأحجى للمرء عندما يعتزم عملاً معقداً، أن يبدأ بأبسط شيء فيه، فإذا كانت رحلة ما أطول من أن تطويها في زمن واحد فقسمها، أجزاء، والمسافر الحازم من ثبت عينيه فيما أمامه من السبيل قبل أن يرمي ببصره إلى آماد فسيحة واسعة وستلقى قلبك - بعد تجارب يسيرة - أجلد وأجرأ، وستجد نفسك أهدأ وأثبت من ذي قبل، فالمؤلف الذي استطاع أن يخرج كتباً جديدة يخالجه ريب، في أن سينهي ما بدأ من الكتب، ولو أنه تناول سلسلة من الكتب لأقبل عليها بثبات جأش ورباطة قلب وانتهى منها وشيكاً.

ويظن الأخرق أن الأعمال تنتهي - لا محالة - إلى خير النتائج وأبلغ النجاح، ويظن خوار العزيمة أن لا شيء يمكن أن يتم، ما لم يستنفد من الإنسان أضخم مجهود؛ أما العاملون الحازمون فيعلمون أن كل شئ سيتم..... ولكن خطوة تلو خطوة....

ثالثاً: نظم عملك..

كثير من الخلق يشتكون ويندبون قصر العمر، ولكن أيُقال - حقاً - أنهم حيوا وعاشوا ثماني ساعات في اليوم الواحد؟! إن العمل الذي ينجزه رجل جالس إلى مكتبه أو قاعد

في مصنعه أم متجره - في ساعات الصباح فحسب - لعمل محير معجز في ضخامته ، والكاتب الذي يسود صفحتين كل يوم؛ يخرج - في نهاية حياته - على الناس بعمل يضاهي أعمال بلزاك أو فولتير كمية إن لم يساوه عبقرية وإبداعاً..

ولا يجزئ المرء أن يستقبل مكتبه يومياً وهو لا يحمي نفسه من أولئك الذين يبعدونه عن أعماله؛ ولا ريب أن عملك سيتضخم كالمتواليات الهندسية إن لم ترزأ بشخص يقطعه عليك قطعاً ، وكذلك يقال في الكاتب الذي يغلق أبواب العالم الخارجي، لتهوم أفكاره وخيالاته في حرية تامة، والعمل المرزوء بالقطع لا تلبث آثار هذا القطع أن تظهر فيه.

فعليك أن تبعد هؤلاء الذين يبددون أوقاتك، هؤلاء الذين يسميهم مونثرلنت: بآكلي الوقت.. chronophage، وهم عارون عن الحياء تماماً، وعلى استعداد لأن يضيعوا آخر ثانية من زمنك دون أن يجهدوا أفكارهم فيما كنت فاعلاً لو لم يزعجوك، هم يطلبون زيارتك، ويتصلون بك تلفونياً وبريدياً.. والصبر على هؤلاء موت، وعليك أن تردهم في عنف وقسوة، وإن أريتهم أقل تشجيع منك، لكان ذلك منك بمثابة الانتحار.. لقد كان جوته أستاذاً في هذا الموضوع، وهو يقول: (يتحتم عليك أن تتخلص من هؤلاء الذين يهبطون عليك من دون موعد مضروب، هؤلاء يشتهون أن تشاركهم في أفكارهم وأن تهتم بأمورهم، أما أنا فلست في حاجة لأن أعرف أفكارهم

ولديّ من أعمالي، ما أنا حائر كيف أنهيها.. ذلك الذي يود أن يعمل للعالم شيئاً عليه ألا يسمح لنفسه بهذه التوافه)..
كان من عادة جوته أن يشطر ما يرده من بريده شطرين: أما هؤلاء الذين يطلبونه شيئاً، فقد كانت رسائلهم سرعان ما تنحدر إلى سلة المهملات، أما الذين يعرضون ويقدمون شيئاً فما كان يولي الاهتمام لأمر منها إلا ما يعود عليه بنفع عاجل أو آجل وكأنه يقول: (آه ... أيها الشباب... إنكم لا تدركون قيمة الوقت)، وكان كثير من عاصروا جوته يرمونه بالفظاظة، ولكنها هي التي جعلته يخلف أعمالاً كفاوست ولهلم ميستر.

● ملاحظ:

ويمكننا من خلال ما أوردناه للأفغاني من مترجمات أن نسجل الملاحظ التالية:

1 - أن مترجماته كانت منوعة، بحيث شملت القصة والشعر والمقالة.

2 - إنها شملت اللغة الأوردية والفارسية، والإنجليزية.

3 - إنها كانت تؤكد رغبته في وصل الأدب العربي بغيره من الآداب الأجنبية بغية الإسهام في تطويره.

4 - كما تظهر مترجماته صدق انتمائه للإسلام والحجاز (الوطن)، والعربية.

ثالثاً: القصـة

الثـأر(*)

قلتُ له: هات ما وعدت، ثم أسرعتُ إلى المدفأة، لأنعم جسمي بالدفء في هذا اليوم القر، وكان لهيب النار ينعكس على وجه العمدة ، فيبدو أحمر كجمرة نار، لأن هلكة الغسق قد تسللت إلى الكوخ الحقير، وإن كانت الشمس لم تغرب بعد.

وانتهزتُ سكوته؛ فصرت أستعرض لنفسي؛ ما شاهدته حين رجوعنا إلى الكوخ، كشريط السينما : فيالها من مأساة مروعة، يقول العمدة: إن هذه المرأة التي رأيت وجهها كوجه الأموات؛ وآثار الحزن الشديد والألم المحض بادية على

*) المنهل - المجلد 3 جـ 3 - وهي أول قصة نشرها في المنهل 1357هـ.

محياها، كانت في ترف ونعيم وسعادة. رأيتها تطيل النظر إلى قصرها الخرب البائد. لا أدري لماذا ينتقمون؟ وما الفائدة التي ترجى من ورائه؟!.

كلا ! لا أدري وراءه إلا إشباع شهوة لا أكثر ولا أقل.

آه! لو كنا نمعن النظر فيما نحن مقدمون عليه من دمار وخراب، إذن لأقلعنا عنه. لكن أين إمعان النظر في العواقب؟ وأين التفكير السليم في تحطيم المستقبل ونحن نفقد عقلنا الذي به نفكر؟ إذن فهو يبدو طبعياً، فكيف نقاوم الغريزة؟

نعم!! إن الله لا يهمل أمرا مهما كبر أو ضؤل.

انظر إلى القصاص، أليس هو أنجع دواء للقلوب المظلومة المفجوعة في فقيدها؟ أوليس هو أحسن بلسم للعواطف المجروحة..؟

ولكني مالي أستطرد هذا الاستطراد كله؟ مالي أعالج الانتقام في ، هل هو غريزة أم لا؟ فإذا كان غريزة فما عليه لو أطاع غريزته؟ دعني من هذا كله!

وهنا فتح العمدة فاه. ولكنه لاذ بالصمت مرة أخرى إذ لم يسعفه صوته.

سرتْ في بدني قشعريرة برد انتفضت لها انتفاضة وريقة في مهب الريح، فطوقتُ المدفأة بكلتا ذراعي. وأرهفت السمع إلى تساقط الرذاذ على زجاج النافذة، فخيل لي أن أسنانها

تصطك من الزمهرير. وهنا صاح العمدة: نعم الآن أبر بوعدي يا سيدي! أرأيت تلك المرأة التي كانت جالسة إزاء ذلك القصر الخرب في كوخ من القش وسط هبوب الزعازع الباردة ؟ نعم يا سيدي! إنها كانت مالكة ذلك القصر الفخم، وصاحبة تلك السهول المنبسطة أمامها المجدبة الآن. ولقد كانت خضراء كبقعة من السماء أو صفحة من البحر، وكان منظر الزنبق والرياحين يُخيل إلى الناظرين أن المجرة تنقل في النهار إلى الغبراء من ثوب السماء القشيب في الليل. نعم أذكر جيداً ذلك اليوم المشؤوم الذي تبدأ منه هذه المأساة التي تنفطر لها أشد القلوب قسوة؛ فقد كان يوما عسيراً عليّ وعليها. وكان أول يوم نشعر منه بلذع ألم الفراق والبين، كنا نعلم أنه سائر إلى خير مما هو فيه، ولكننا لم ننس كذلك أن البعد عن الأهل والدار يقلب كل فرح إلى نوع من الغم والهم.

●●●

دعيت يوما إلى القصر فخلت أن خطابا وصل من أحمد، ولما كنت أنا الوحيد الذي يعرف القراءة والكتابة في القرية فمن المحتم أن أُطلَب، ولكنني ما كدت أفتح باب السور، حتى رأيت أحمد يهرع إليّ، فيستقبلني ويعانقني معانقة الأخ للأخ، برغم ما كنت أعهد منه من الغطرسة والكبرياء، فعجبت لأمره وقلت لنفسي: ربما ألانَهُ ما كان يلاقيه من رؤسائه من ترفع وتكبر، ولم يمهلني أتفكر في تحوله هذا التحول العجيب في

مدى ستة أشهر، إذ سرعان ما فاء إلى بيته كأنه خائف من شيء، وقلت: لعله كان ينطوي على سر رهيب أراد أن يبوح به إلي، فخانته الشجاعة وأدركه الخور فلم يستطع، فقفل هكذا مسرعاً.

ولكن ما معنى حذره هذا؟ وما سر نظراته الشاردة وعينه الحيرى؟!

إذن إن الواجب يقضي علي بأن أكشف الغطاء عن هذه الأسرار، لأدخل الاطمئنان إلى قلبه، وكانت ظلمة الليل تبسط أجنحتها على الآفاق، وإن كان ضوء النهار لم يستسلم بعد.

وهنا دوى في الفضاء صدى طلقتين ناريتين وعقبتهما صرخة مكبوتة... فصحت مذعورا وأنا أهرول نحو القصر، وكأن الألغاز قد تكشفت!!

●●●

وقفت بالقرب من سرير أحمد وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، لأن الطلقتين قد أصابتا قلبيه وكتفه، فنزف الدم غزيراً، ولم يصل الطبيب إلا بعد أن أصبح العلاج بدون جدوى، وكنت أحس بأحشائي تتقطع من الألم والحزن العميق.

آه يا سيدي! أستطيع أن أقول لك أن المودة لم تكن على مايرام بيني وبينه، ولكن كم كنت مخلصا لهذه الأسرة، وكم كنت أود أن لا يفجعها الله في محبها الوحيد.

صدقني يا سيدي إن هذه المرأة قد جعلتني عبداً لها لما فطرت عليه من مكارم الأخلاق وإن ابنها كان كقطعة من قلبي، لما كنت أشاهده لي من الاحترام، منذ نعومة أظفاره حتى بلوغه شرخ الشباب وعنفوانه .

فويل لي إذا لم أفد هذه الأسرة بدمي ومهجتي، ولكن يكذب الإنسان حين يقول: أفدي بنفسي فلانا، فأين هو الفداء؟ ألا إنها كلمات لا يقولها إلا كل جبان كاذب!! أوَلا تراني حيا أعيش، وهم تحت أكداس التراب؟!.

●●●

وكنت أرى الأوفق استبقاء «جميل» في القرية، ولكنها أصرت إصراراً عجيباً على إرساله ليتقلد منصب أبيه في الجيش. لا أكتمك أنها كانت حقودا فكانت ترمي إلى الانتقام من وراء تقلده المنصب ، فسيكون قاتل أبيه بالقرب منه، ليستطيع أن يثأر منه إذا ما أتيحت له الفرصة، ولقد أفهمت ابنها أن أباه لا يذوق الراحة في قبره حتى يراق دم قاتله، فكنت أعجب لقلب هذه المرأة الذي يلين تارة فيدر الشفقة والحنان، ثم يقسو أخرى فيقتبس غرائز الوحوش في حب الافتراس، كنت أراها تفرك يديها وتقول: آه!! لو كنت رجلاً لأريتك كيف أهشم رأسه القذر، فكنت أقول في نفسي: إن هذا الجنس اللطيف الناعم الملمس الرقيق البدن، الذي لا تعرف الخشونة سبيلا إلى جسمه البض، يحمل قلباً كقلب الوحش إذا

ثار، إذن فلا ينبغي أن تخدعنا ظواهر الأشياء، فلا نحكم على الشيء حتى نعرف كنهه..

رحل (جميل) برغم معارضتي الشديدة في سفره.. وكنا نتلقى منه كل أسبوع خطابا أو خطابين، ووقفت خطاباته بعد ثلاثة أشهر فجأة، فساورنا قلق شديد، وأصبحنا نظن الظنون، حتى تهيأت بنفسي لسفر لاستطلاع الحقيقة، ولكن واأسفاه!! الحقيقة المرة قد وصلت إلينا في القرية ولمّا أبرحْها، لقد لقي حتفه مثل أبيه! أي قلب امرأة يتحمل منية الزوج والابن في أيام معدودة فكأنهما لم يكونا؟ وأي عين ترى أسرة تتنهار في ظرف عشرة أشهر؟! آه! يا سيدي قرأت لها خطاب صديقه الذي ينعيه فكأنها لم تسمعه، وكأن مقلتيها تحجرتا فلم تجودا بدمعة واحدة، (توارى الاثنان معا) - هذه الكلمات الثلاث التي نطقتْ بها بعد فراغي من القراءة!.

جاء الشتاء ببرد قارس، وعادت الأمطار إلى هطولها الغزير، فامتلأت القيعان والبحيرات بالماء، فعاد إليها البط أفواجاً أفواجاً، وخرج الصيادون - مثلك يا سيدي - إلى القرى زرافات ووحداناً، فكان الفلاحون يرحبون بضيوفهم، وينزلونهم في أكواخهم، ويساعدونهم راجين أن ينفحوهم بشيء من النقود عند أوبتهم، وجاء إلى قريتنا أربعة شبان وسيمو الوجوه، حسنو الهندام، تبدو عليهم مظاهر الأبهة والغنى، فأردت أن أنزلهم في منزل يليق بهم، فلم أر سوى قصر هذه

الأسرة البائدة، تخدمهم فيه هذه المرأة الشاحبة، عساها تجد قوتها من قيامها بلوازمهم، فقد هاجمها الفقر من كل صوب، ونضبت مواردها جمعاء..

وفي مساء اليوم التالي بينما كنت جالساً أمام بيتي، إذ رأيتها مهرولة إلى بيتي، فقمت واستقبلتها، فأمسكت بيدي وقالت لي: اتبعني، فتبعتها ولم أنبس ببنت شفة، فأجلستني على حصير وقالت: بعد أن آوى الشبان إلى فراشهم الوثير استدعاني كبيرهم وقال لي : هل تعرفين عجوزا شمطاء في هذه القرية قد مات عنها بعلها وابنها مقتولين منذ أمد مديد ؟!.. إننا نروم مساعدتها، فقلت له: ولماذا تخصون هذه العجوز بالإحسان دون غيرها ؟ فقال: كان جدي وزوج هذه المرأة ضابطين زميلين في جيش الملك، وقد توثقت بينهما عرى الصداقة، ونمت بينهما المودة مع مر الزمان فصارا لا يفترقان إلا غراراً، ولكن القدر أراد فصم صداقتهما، ولا مرد لما أراده القدر، فاختصما مرة لشيء تافه، وأغوى الشيطان زوج هذه العجوز فأغمد حسامه في صدر جدي، فقضى لحينه، ولم تستطع السلطات أن تثبت عليه التهمة فأطلقت سراحه، وكأنه قد فطن إلى أن أبي لابد أن يثأر منه فلاذ بالفرار، ولم يمهله والدي بل تبعه إلى قريته هذه وترصد له خارج سور داره عند مجرى الماء، فلما جاء الرجل يغترف الماء ليتوضأ أطلق عليه أبي رصاصتين اخترقتا قلبه، فارتمى جثة هامدة أما أبي فقد أطلق ساقيه للريح ولحسن الحظ نجا..

وكان لهذا الرجل ابنٌ وحيدٌ جميل الطلعة، صغير السن، تقلد منصب أبيه بعد موته، فأوجس أبي منه خيفة فأراد أن يلحقه بأبيه. وكان فتى طيب القلب سهل القياد، تخدعه المظاهر، ففاز أبي بصداقته في مدة وجيزة، فدعاه إلى داره، فلم يتردد الفتى ولم يخامره أي شك فقبل الدعوة، ولكنه لم يخط خطوتين داخل الدار حتى قابله أبي بسيف مسلول، ففهم ما يعنيه فقابله بالمثل، وهنا حمي وطيس المبارزة فصرع أبي، وارتمى هو ايضا بجانبه يخوض في دماء جراحه، فأسلما الروح، ولم يشعر بهما أحد، لأننا دفناهما في حديقة دارنا، ولهذا نريد أن نمد يد المعونة لهذه المرأة التعسة التي لم يبق من أسرتها أحد.. وهنا انحدرت من عينها على وجهها دمعتان لاحظتهما قبل أن تبادر إلى مسحهما، فقلت لها وأنا أظهر الاطمئنان: أعلميهم بنفسك، وأخرجي من رأسك جميع ما مر عليك، فإني لأرى الخير في وجوه هؤلاء الفتيان، فأجفلت راجعة ولم تجبني بأية كلمة، فظننت أنها وافقت على ما قلت.

انحدرت الشمس نحو الغروب، وأسرعت فوارت وجهها بين السماء والأرض، وسرعان ما داهم الظلام بجيوشه الجرارة الأرض، وأخذ يستولي عليها رويداً رويداً، فكان القصر يبدو لي كطيف قبل برهة .. أما الآن فقد توارى بين الظلمة والضباب، وقمت إلى كوخي وارتميت على سريري وأسلمت نفسي للكرى لكنه أبى أن يحتضنني، وكلما أردت أن ألقي

بنفسي في أحضان النوم طرحني الأرق وأبعدني عما أريد، فلما يئست قمت إلى النافذة استنشق نسيم الليل النقي، وإذا بي أسمع صراخاً وعويلاً، وأرى لهيب النار يعلو من القصر فيناطح السحاب، فأسرعت بالخروج من كوخي، وأسرعت نحو القصر وأنا أستنجد بالناس، ووصلنا إليه بعد أن أكلته النيران بمن فيه..

وهنا لاحظنا هذه المرأة تدور حول أكوام الرماد وهي تصفق بيديها وترفع عقيرتها فتقول: لقد بادوا كما بدنا..

ثم خاطبت الناس بصوت جهوري، وقالت: أنا التي أشعلت النار بيدي هاتين في القصر، أنا التي أغلقت الباب على الفتيان. ولما سمعت صرخاتهم خفق قلبي بالفرح، فؤادي يغمره المرح، الآن انتقمت فاعملوا ما شئتم: فإني رويت شهوتي وأرضيت ضميري..

وهنا سكت العمدة..

فقلت له: هذه ثمرة الانتقام بعد أن تنهار أسرتان عظيمتان...

طائران إلى القمر(*)

كانا يسعيان سعياً حثيثاً، ويجدان في السير، وهذا الغبار الخفيف الذي يثيرانه وراءهما يمتزج بضباب الغسق فيكونان طبقة كثيفة ، تكاد تحجبهما عن بصري، فلأتقدمْ قليلاً، ولأقف فوق هذه الربوة الخضراء، أو لأجلس فوق حشائشها الخضراء ليكون «الطائران إلى القمر» في متناول بصري، إنهما انحدرا إلى السهل المنبسط السندسي الأخضر ، أظنهما حاطين رحالهما وراء هذه الحرة، إزاء الجدول الرقراق لينعما نفسيهما بالنظر إلى مطلع القمر، وهواء الليل الهادئ يهب عليهما ، فيلامسهما لمساً رقيقاً، ويداعب وجهيهما مداعبة لطيفة.

ينتشقانه فإذا جسماهما ينتعشان، وإذا الضنا عنهما يتبدد ، وإذا النشاط يعاودهما رويداً رويداً.

آه! ما لقدمي تقوداني إليهما ، ومالي أطيعهما طاعة

---

*) المنهل - المجلد 3 جـ 6.

عمياء، وإنهما لا يعرفاني ولا أعرفهما وربما لا يستريحان إلي.

إذن، فلأصل إلى الحرة التي هما موليان ظهريهما إليها لأراقبهما عن كثب.

●●●

انظر - إبراهيم - إلى معجزات القرائح الجبارة، والعقول التي لا تني ولاتتعب من التفكير المتواصل المطرد، وهذه المعجزات التي نراها كل يوم بأعيننا وليدة هذا الشيء البسيط في حجمه الذي لم يدرك كنهه أحد من القدماء والمحدثين، والذي احتار في تكوينه كل فيلسوف قديماً وحديثاً، لكنه لم ينكر أحد أنه من أغلى الأشياء في عالمنا هذا إذا ما استعمل في عمل مفيد، أما إذا أساء صرفه مثلك في هذه الثرثرة أو هذا الشيء الذي تسمونه أدباً فليس هذا إلا بخس الشيء حقه وجحود الفضل.

تعال معي: لنلقي نظرة خاطفة منذ وجد العالم إلى الآن، ولننظر في صفحات التاريخ إلى كل رجل سجل التاريخ أعماله المجيدة، من عالم، إلى صانع، إلى فنان، إلى غير ذلك.

حينئذ تدرك أن هذا الرجل الذي يسمونه أديباً ليس إلا رجلاً أطلق العنان لعواطفه وأسلس القياد للسانه الثرثار، فطوراً يخرج كلاماً لا يفهمه إلا أمثاله، وطوراً يقول كلاماً

لا يفهمه هو ولا أمثاله، فقل لي بالله: أي عمل أسداه إلى الإنسانية؟ وأي شيء أفاده حتى يذكره التاريخ في زمرة الأبطال الذين ضحوا بكل غالٍ ومرتخص في سبيل الإنسانية والحضارة أمثال ماركوني وتوماس أديسون؟ ثم ليت هؤلاء الكسلى لم يُعدوا أحداً غيرهم حتى لا يمتد سخفهم إلى عصرنا الحاضر، لكنهم غرسوا شجرة الخمول، فذقنا ثمرتها مكرهين!! واسمح لي أن أقول: إنك من ثمراتها المشؤومة، فأنا أرجو منك أن تزايل هذا الذي تتشبث بأذياله، لئلا تُعدي به الأجيال القادمة، أما أولئك الأبطال فسيحفظ لهم التاريخ جميلهم بمداد من الفخر على صفحاته الخالدة، وبمجدهم ترى الإنسان اليوم طائراً يزاحم الطيور في أجوائه.

قال أحدهما هذا، ثم صمت برهة طويلة، وأخيراً نظر إلى أخيه نظرة ملؤها الإعجاب بالنفس يترقرق في عينيه فخر الانتصار، ثم تلاشت تلك النظرة وتلتها نظرة أخرى ساهمة تجلي فيها معنى الرثاء لأخيه، والحزن عليه، وعلى حاله التي تثير الشفقة والرحمة فقال: - نعم وما رأيك الآن يا إبراهيم؟!.

هنا رفع إبراهيم رأسه، وكأنما أفاق من سبات عميق، ثم نظر إلى صاحبه وابتسم ابتسامة لها معناها ومغزاها، وقال:

- ما الذي أقوله لك - أخي العزيز - وأنت أعلم مني برأيي؟ بيد أني أريد أن أقنعك وأظهر لك فضل هذا الشيء

الذي تسميه ثرثرة تارة، وكلاماً فارغاً أخرى، وأريد أن أظهر لك أن الشيء الذي تمقته وتبغضه، لا يمكنك الاستغناء عنه، اللهم إلا إذا استغنيت عن عواطفك وغرائزك، فحينئذٍ يتيسر لك ذلك، ولكنك تخرج في هذا الوقت نفسه إنساناً آلياً لا خير فيه!

أعلم حق العلم أنك لا تستطيع فقه كلامي، لأن غشاوة المادة مسدلة على عينيك وأذنيك، فلا تنظر إلا إليها، ولا تعي إلا عنها، لكنك فقدت شيئاً أعظم وأكبر، وخسارتك أكبر من نفعك، إنك فقدت شيئاً تمتاز به عن الجماد، إنك أعطيت شيئاً لتنعم به في حياتك القصيرة فنبذته، وأبعدته عنك قصياً، فصرت إنساناً ميكانيكياً، ألا وهو عواطفك وغرائزك، وبذلك خسرت أحب شيء إليها، فالأدب وحي هذه العواطف وترجمان هذه الغرائز.

اصغ إلى - أخي العزيز! - نجاح المرء في هذه الحياة هو إدراكه السعادة ولست واجدها وراء المادة أبداً، والإنسان يعيش بغرائزه أكثر من كل شيء، فلا يهلكها لأنه يبقى حينئذٍ إنساناً، إنما النجاح كل النجاح هو أن تصقلها بعقلك، فتخفف جماحها وتجعلها خاضعة لك، لا أن تقتلعها من جذورها وتطوح بها في الهواء، إنك إذن تفقد عنصر الإنسانية، وما أحوجنا إلى هذه المخترعات الحديثة! لكن ما أحوجنا أيضاً إلى سعادة نتنعم تحت ظلالها الوارفة، والسعادة موقوفة على

الحقيقة يدركها الإنسان، والحقيقة ما تصوره العواطف والغرائز بعد أن يزنها العقل المدرك، إذن فالسعادة كامنة في الأدب.

وهنا رمق أخاه بنظرة فرآه مطرقاً صامتاً، فتجلت آيات السرور على جبينه لأنه استطاع أن يجعله مرتاباً في نظريته الأولى، وكذلك أخرج إبراهيم مجلة شهرية وضع أصبعه في وسطها وخاطب أخاه:

- انظر - يا أحمد! - هذا الجزء السابع من مجلة «المنهل» الغراء في سنة 1357هـ حينما كانت في بدء إنشائها، أنظر إلى صفحاتها القليلة، أما الآن فأنت عالم بانتشارها هذا الانتشار الواسع، وحجمها الضخم، ومطبعتها الفخمة، وعدد العمال المشتغلين فيها، وأنت عالم بكتابها النابهين، وأدبها الراقي، انظر هذا المقال الذي كتبه الأستاذ أحمد رضا حوحو تحت عنوان (هل يأفل نجم الأدب). إنه يقرر فيه أفول نجم الأدب، ويرى أن المادة ستطغى عليه، لأن العلم تقدم تقدماً أعظم، فليته كان حياً، فيشاهد بعيني رأسه ازدهار العلم في سنة 1357هـ هذا الازدهار المطرد، ومع هذا فإنه لم يطغ على الأدب، وليس الأدب أقل ازدهاراً منه اليوم، وكان يمكنه أن يلقي نظرة إلى القرون الأولى فيرى كيف ساير الأدب العلم دائماً، جنباً إلى جنب، ولم يطغ أحدهما على الآخر في أشد انتشار أحدهما، أو ليس اكتشاف النار لأول مرة كان خطوة جريئة لتقدم العلم: إذ كانت من الضروريات الأولى لحياة

الإنسان وتحضره خلاف المخترعات الأخر، فكيف تسنى للأدب أن يتسرب إليه؟!

وهنا قهقه أحمد، وقال: آه!! إذن فقد كان سميي الأستاذ أحمد مؤيداً لي في رأيي قبل مائة عام، ثم أمسك إبراهيم بذراع أخيه وقال: ها! انظر إلى القمر وقد اكتمل ضوؤه، فطلع مزهواً متبختراً، إنه ينظر إلينا متبسماً فخوراً! ألست تحس ذلك منه؟!..

ولماذا لا يتبختر وعابر السبيل ينتظره بفارغ الصبر بعد أن يجنه الليل، عساه أن يهتدي إلى سبيل في سناه. وأمثالنا يترقبون طلوعه ليبتعدوا عن صخب الحياة والمادة ردحاً من الزمن.. فيلمسوا الراحة في سكون الليل عند القمر.

فأجابه أحمد وهو معجب بكلامه: إنك تشعر بما لا أشعر لأنك أديب تحلق في أجواز الخيال، وتخلق لنفسك جو الهدوء والسكينة متى شئت، وأنى شئت.. والمرح يرفرف فوقك بجناحيه لأن الأدب جعلك روحاً سامية بعيدة عن المادة، أما نحن فلا نجد الطمأنينة على سطح هذه الأرض فسنبحث عنها على القمر حيث السكون التام لايشوبه صخب المادة وضجيجها، لأن هدفنا واحد وهو سعادة النفس.

وهنا هتف إبراهيم هتافاً حماسياً عالياً: هاهما العلم والأدب يحلقان في الأجواء طائرين إلى القمر سواء.

فتسللت مسرعاً، كي لا يرياني ولسرعتي عثرت قدمي بحجرٍ فتألمت...

وإذا بي أنهض من نومي مذعوراً، وأتلفت يميناً وشمالاً: فلم أر لأحمد ولا لإبراهيم أثراً، فنظرت إلى قدمي فإذا بي لأرى بعوضة كبيرة تمتص دمي، مسرورة بهذه الغنيمة الباردة، فعالجتها بضربة على أم رأسها ولكنها مع الأسف طارت قبل أن تنزل عليها يدي كالصاعقة....

عودة سعيد(*)

افترّ فوه عن ابتسامة راضية... أجل إن كل هذا الغنى بين يديه.. أجل إن هذه الآلاف من الجنيهات الذهبية لرهن إرادته، إنه يستطيع التصرف فيها كما يشاء.. وفي مقدوره أن يبددها إذا شاء.. لكن رويداً!!..

الحق أنه لا يستطيع ذلك، لأنه مقيد بدفاتر تجارية تقيد عليه كل قرش، خارجاً كان أو داخلاً.. لأنه لا يملك تلك الأموال الطائلة، إنما هو حارسها لا أكثر أو أقل، تلقاء أجر بسيط لا يقوم إلا بحاجاته وحاجات أمه الكهلة الضريرة...

كلا!! كلا!! إن هذا لظلم جارح أن لا يستطيع التصرف في هذا الثراء الواسع... وهو الذي نما بين يديه أكثر هذا الغنى... ثم كرت به الذاكرة القهقرى إلى حوادث أمس، فتذكر كيف أحاط به الدائنون أولاً... ثم لما رأوا أنه لا طائل وراء إلحافهم عليه تركوه ساخطين، وبلغ بهم السخط إلى حد أنهم رفعوا شكواهم إلى مدير الشرطة يطلبون استيفاء ديونهم من

*) المنهل – المجلد 5 جـ 2 ص 11 محرم 1360هـ.

سعيد... سعيد الذي يشغل أهم مركز في أكبر متجر ، فكيف لا تسدد ديونه...

فكان ما كان في دار الشرطة من مماطلته إياهم إلى الغد، فإذا لم يف بوعده صباح الغد فسيكون مصيره - حتماً - إلى السجن ... إلى الفضيحة... إلى العار.. طافت هذه الخواطر المفزعة بمخيلة الغني، فذرفت عيناه الدموع وتنهد تنهدات حرى... وغاص قلبه من خوف الفضيحة...

لأنه لا يستطيع أن يبوح بسره هذا لمخدومه ، لأنه لا يستطيع أن يبرر له أخذه للدين... فهو بين نارين...

ثم طرقت باله فكرة طارئة سريعة...لكنه سرعان ما نبذها ظهرياً.. وأبى أن يخون مخدومه المحسن إليه. كلا!!! كلا إن هذا نستحيل... لن أقدم على عمل كهذا مهما كانت الظروف قاسية.. حسبي ما اقترفته من الذنوب ولن أضم إلى سجلها خطيئة الخيانة والسرقة..

أجل! أنا أعلم أن مخدومي لا يكاد يتفقد صندوقه إلا غرارا اعتمادا على أمانتي واستقامتي... وقد جربني مرارا خلال هذه السنوات التسع، فلم يستطع أن يمسكني بخيانة أو اضطراب في الحساب... فاطمأن إلى جانبي واستراح إلى ضميري وأمانتي، فكيف لي أن أخون هذا الرجل الكريم...؟

تمتم الغنيّ بهذه الكلمات متقطعة سريعة... ثم رجعت به

ذاكرته إلى ما يهيء له الغد من الفضائح والإهانات وسوء السمعة...

وأنه إذا فقد مركزه هذا فيصبح مقترا يعاني الفاقة وراء الفاقة... ثم هو فوق كل هذا مسؤول عن أمه الضريرة، والتي إن لم تجد من يقوم بأكلها وشربها ورعايتها فلا تعيش أكثر من أيام...

فماذا يا ترى يكون حظها من بؤسه إن هو زُجَّ به في غياهب السجون... رباه!! إنه محتار لا يعي ما يقول وما يفعل... محتار بين الحياة والضمير... هكذا حدثته نفسه ... فأخذته غيبوبة محمومة وامتدت يده... إلى الصندوق الحديدي بالخيانة لأول مرة في عمره...

كان سعيد قد فقد أباه، وهو لم يتعد الحادية عشرة، وكانت أمه قد تجاوزت الخامسة والثلاثين من عمرها حينما توفي أبواها قبل ولادة سعيد بأشهر معدودات، ولم يبق لها من الأقرباء أحد سوى خال لها يعاني الفقر والضنك، يعيش مقتراً لا يكاد يفي بحاجات ولده الكثيرين، ولم يكن اتصالها به وثيقا بعد أن بارحت وطنه في صحبة زوجها ، فلما قضى زوجها ألفت نفسها في غربة ووحشة قد أحاطت بها أشباح الفقر والفاقة، فسُقط في يدها واحتارت من أمرها، ولم تدر ما تفعل وما تترك... ولكن كان بجانبها في وسط كل هذه الزعازع المخيفة قبس من الأمل تطمئن إليه ساعة من النهار،

أو ساعات من الليل... ذلك هو ابنها الوحيد الذي اضطر أخيرا أن يهجر المدرسة هجرا غير جميل ليساعد أمه في معيشتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً...

نظرت هذه الأم البائسة المنكودة حولها، ورأت من الأثاث الرث في الدار ما لا يقوم بنفقة البيت أسابيع إن هي أرادت بيعه، وكان بجانب بيتها دار العم عبدالغني، البزاز الشهير، صاحب محلات تجارية عدة في بيع الأقمشة وكان مشهوراً بإغاثة البائسين التعسين، وبأياديه البيضاء على فقراء المدينة ومؤسساتها الخيرية...

فرأت هذه البائسة أن تلتجئ إلى العم عبدالغني، وترجوه أن يجد محلا لائقا لابنها اليتيم في إحدى متاجره...

●●●

كانت ليلة ليلاء على سعيد تنهبه الوساوس والشكوك، فيتمثل العم عبدالغني هاجما يريد أن يسحقه بعصاه المتينة... ثم يرى العم عبدالغني وقد أخذ بخناقه يريد أن يسحبه إلى دار الشرطة وهو يبكي وينشج نشيجاً يفتت الأكباد... ثم يتلاشى المنظر السابق فيخيل إليه أنه واقف فوق جبل شاهق، في سفحة هاوية هائلة لا تقر العين عليها من هيبة منظرها، فيفاجئه العم عبدالغني يريد إلقاءه من ذلك الشاهق... فكان في تلك الحالة من الآلام النفسانية لا يطرق النوم جفنه مهماً

حاول ذلك، وقد أخذته حمى حامية من جراء الخوف والفزع، فلم يستطع الذهاب في الصباح الباكر إلى المتجر وهو يهذي هذيانا مستمرا غير مفهوم، وكان المطر يتهاطل بغزارة...

وبغتة طُرِق باب بيته طرقا متواصلا شديدا ، فصحا سعيد من غمرة حماه فزعا مذعوراً، وطرق سمعه صوت الطارق، فإذا به صوت العم عبد الغني يصيح: «افتحوا الباب»...

فغاص قلبه من الخوف وانعقد لسانه، فسكت عن الهذيان، وأراد القيام فترنح وسقط على سريره مرة أخرى... لابد وأن العم عبدالغني قد اطلع على كل شيء وجاء يعاقبه... ويلومه... سيلقى ويواجه ما كان يكره أن يلقاه... ليت أمه لم تلده... لكن مهلاً: لا يمكن أن يكون العم عبدالغني علم بفعلته ولم يمر عليها سوى عشرين ساعة... فتماسك قليلاً وقام إلى الباب يعالج فتحه، لكنه ما كاد ينفتح الباب على مصراعه حتى شاهد رجلين...

أحدهما كان العم عبدالغني، والآخر كان... شرطياً...

صاح سعيد صيحة مفزعة وولى أدباره يجري إلى داخل البيت، فدخل في أثره العم عبدالغني بصحبة الشرطي، ثم اهتدى الاثنان إلى سريره فألفياه غارقاً في الحمى يتقلب على السرير مضطربا كالسمكة على اليابسة، ويئن أنينا خافتاً...

فصاح العم عبدالغني قائلا: «أجل ستلقى جزاءك حتما... أيها الغر الأبله»... وما كاد العم عبدالغني ينطق بهذا حتى تماسك سعيد بنفسه، واستوى على السرير مقاطعاً إياه باكياً: «عمي... أتوب... أجل أتوب... لا أعود إليها مرة ثانية... كنت مضطراً»، فتابع العم عبدالغني كلامه غير ملتفت إلى بكائه قائلاً: «أجل !! أنت تستحق هذا... ألم أقل لك أكثر من مرة... أن لا ترهق نفسك بالعمل حتى تمرض ... والآن أرجو لك الصحة والشفاء وهذا جارك الشيخ عبدالمعين جاء يعودك أيضاً»، وما أن أتم العم عبدالغني هذا الكلام حتى تولى هو ورفيقه راجعين.

بهت سعيد ووقف عقله عن التفكير بغتة وشل كل عضو في جسده... لكن لم تطل غيبوبته هذه إلا لحظات قلائل، صاح في إثرها صيحة الظفر: «رباه!! لازلت أحتفظ بشرفي... إذن أنا لم أفقد شرفي... رباه!! أنت كريم... ما كنت إخال العم عبدالغني لم يطلع على خطيئتي... إذن ففي يدي أن أعود إلى حياة الشرف والضمير... أجل سأعود... سأعود... رغم أنفي وأنف الدائنين... فليفعلوا بي ما يشاؤون ولأكن ضحية ضميري الحر... رباه!! إنك لكريم».

كانت هذه الضجة قد أيقظت الأم الضريرة، فسعت إلى سريره متلمسة طريقها بعصاها، وكانت قد حسبت أن ابنها يهذي تحت ضغط الحمى الشديدة، فتحسست يدها جسمه

واستقرت على جبينه المنضوح بالعرق الغزير، من جراء الحركات أثناء صياحه، فطبعت الضريرة قبلة حنان على جبينه وقالت بصوت خافت: «إن هذا العرق الغزير يبشر بزوال الحمى قريباً... فاطمئن - يابني - ولا تقلق» فأجابها سعيد مقاطعاً: «أجل!! أماه... مرضي قد زال ولله الحمد» ثم تماسك فقام متعثرا كمن فقد وعيه يقصد المتجر... إلى حيث يسترد شرفه فيرضي ربه ثم ضميره... إلى حيث تنتظره الطمأنينة والرضى عن الحياة... إلى حيث يجد سعادته وهناءه المفقودتين... إنه ليحس بهذا المبلغ في جيبه كقطعة حجر لاصقة ببدنه مباشرة فيريد نزعها والتخلص منها... لأنه يريد التخلص من هذا الكابوس الذي يهدده كل وقت وآن... فلتمت أمه جوعاً... فليس من شأنه أن يشتري حياتها بضياع شرفه... إن رزقها على الله ، أما شرفه فهو المسؤول عنه أمام الله... وتأنيب الضمير يفوق لديه عذاب السجون... ولو أنه يعلم علم اليقين أنه إن رد هذا المبلغ لموضعه... فلن يتركه الدائنون يتمتع بالحياة والسمعة الحسنة... وإن شرفه سيتلطخ حتما بالأوحال عاجلاً... أم آجلاً... لكنه يستأهل ذلك لأنه أخطأ وسيلقى جزاءه راضياً مطمئناً رابط الجأش... «أجل يا سعيد... إلى السجن... إلى حيث أرادك الدائنون ... لكنك لن تخون محسنك... ولن تخون ضميرك» قال هذا وهو يغلق الصندوق الحديدي بيد مرتعشة كما فتحه من قبل بيد

مرتعشة، وكان ينفض كريشة في مهب الريح من جراء الحمى الشديدة الوطأة... «رباه!! فقد عاد سعيد إلى السعادة... إلى الشرف...» هكذا تكلم سعيد ثم ترنح وكانت هذه آخر كلمة فاه بها....

جبار بني العباس(*)

اتقدت عينا هارون الرشيد ولمعت لمعاناً غريباً مخيفاً حينما رأى خالد بن أبي ذؤابة يترنح بجسمه الضخم في سلاسل لا حد لها بين حارسين يحكيان زبانية جهنم، كل منهما ممسك بيد ذراعَهُ المفتولة، وبالأخرى قابض على سيف مهند متعطشٍ إلى دماء تروي صفحته الصقيلة اللامعة، وللسيفين في أيديهما بريق ووميض يخطفان الأبصار.

هذه هي المرة الرابعة التي يخرج فيها هذا الأمير المتهور على جبار بني العباس، مستخفاً بعظمته وشدة بأسه، وفي كل مرة يخلف عن طموحه إلى الخلافة حظه العاثر في ميدان الثورة والخروج، وهو حين يتحدى هارون يتحداه وقد أيقن أنه وصل، لكنه للأسف الشديد أبداً يسبق حظه إلى العمل فيقع أسيرا بين يدي غريمه.

ومرات ثلاث يشمله عفو جبار بني العباس ويعاد إلى عمله مكرما معززاً بنوائله، لكن النفس الخبيثة الأمارة بالسوء لا تكاد تستقر على دعة وأمان.

---

*) المنهل - المجلد 4 جـ 10 = 1352هـ.

أجل هذه رابعة يتمثل فيها بين يدي هارون مكبلاً بالحديد من رأسه إلى أخمص قدمه، وهو نفسه يائس هذه المرة ولا يرجو لنفسه العيش إلا لحظات قلائل، لأنه أصبح خطرا على حياة الدولة ومن الحكمة محوه عن صفحة الحياة، ومن الذي يضمن أن من عمل شيئا أربعًا لا يتأخر عنه الخامسة.

وهو نفسه لو حيل بينه وبين الحياة لعاد إلى ما كان فيه، وكيف لا!! وقد وضع أمامه مطمحا من المحتم أن يصل إليه مهما كلفه ذلك من أمر، وهو الآن أيضا سيرمي آخر نبل في جعبته ويستدر آخر عطف في قلب هارون، أجل إنه لن يتوانى عن ذلك لحظة.

وما أن تقدم خالد بن أبي ذؤابة صوب هارون حتى هب واقفا، وأمر الحارسين بفك السلاسل، ثم تقدم قليلاً وأمر خالداً بأن يقترب منه، ثم عانقه عناقا حاراً وعاتبه عتاباً لطيفاً وأجلسه بجانبه، وكان خالد كأنه في حلم أو كأنه مس في عقله، لأنه كان ينتظر قهر جبار بني العباس، وأمره الصارم بقتله، ولم تكن إلا لحظات حتى يطاح رأسه بسيف الجلاد... ولم يكن كل ذلك ، بل كان عتبا خفيفا ولوماً رقيقاً لا أكثر ولا أقل... ما أوسع عفو هؤلاء الملوك...! وما أرحب صدورهم.!

كان خالد غارقا في هذه الأفكار والتأملات، وما انتبه إلا على صوت هارون يأمر قهرمانه بإيصال خالد بمائة ألف ألف

درهم، وكتابة مرسوم له على ولاية خراسان، وحينئذ لم يتمالك خالد نفسه من الجذل حين سمع هارون يغمره بكل هذه العطايا، وقام يقبل أيدي هارون وأقدامه.

وبعد أن انصرف الحاضرون أذن له هارون بالذهاب إلى عمله وأكد له عفوه، فمشى خالد صوب باب القصر وهو لا يكاد يصدق نفسه.

وثانياً!! هب هارون واقفا وهو ينظر إلى خالد بن أبي ذؤابة وهو مستدبر يجد في السير وقد قرب الباب.

وبغتة... رفع جبار بني العباس يده بإشارة خاصة وانقضت يد أحد الحارسين بالسيف هاوياً على عنق خالد كالصاعقة... فتدحرج رأسه على الأرض كالكرة.

من القصص الواقعي الطريف

صورة من حياة الصيف في المدينة المنورة(*)

كانت الشمس قد آذنت بالغروب، وقد ركب أربعتنا عيراً كريناها إلى البستان الذي تقدمنا إليه أصدقاؤنا الثلاثة قبيل الظهر لينظموا أمورهم ريثما يتمم كل منا أعماله الرسمية، ويلقي عن عاتقه عبء المسئوليات والأعمال، ويمر من شوارع المدينة وهو في لباسه الكامل يكلل جبينه الوقار المتكلف بعيداً، وتأبط كل منهم جبته ونادى على المكاري يستعجله الحمير لأنها المركب الوحيد الذي يعفي الراكب من وخز المسامير واهتزاز الجسم بما فيه من أمعاء، وبرغم ذلك يراه بعض المتعصبين لنوع العربات الموجودة بالحجاز مركباً شائناً لا يليق إلا بالأساتذة والموظفين. ولكن المغرب كان ستاراً كثيفاً بيننا وبين هؤلاء المتزمتين.

أجل!! ركب أربعتنا ولكن لم نحسن التوزيع إذ كان أقصر الجماعة على أطول الحمير، بينما كان أطولنا يلف ساقيه

*) المنهل - المجلد 5 جـ 8 و9.

الطويلتين على حمار قميء، وكان من نصيب جسمي الضخم حمار هزيل لا يتقدم إلا بعرض حال - كما يقولون - فكان دائما في مؤخر الركب أو خلف الركب بعشرين خطوة، وذلك بالرغم بما كنت أفهمه أن تأخره عن جماعة الحمير لا يجوز في علم الاجتماع، كما أنه ليس له وجه في علم النفس، لأن ذلك يخالف نظرية انقياد الفرد مع الجماعة، وقصصت عليه مناظرة الأستاذين شحاتة وعريف قبل مدة ولكنه - مع الأسف - أظهر بطلان تلك النظرية عملياً وتقدمنا، وكان كلامنا صياحاً، وتبسمنا ضحكاً عالياً، وكنا أبعد ما نكون من حديث الأعمال وأقرب ما نكون إلى حديث يجلب المرح والحبور، وكان الظلام قد بسط جناحيه الكثيفين على البساتين والحرار السوداء والطريق، ومررنا بين مضيق لا يكاد يتسع لراكب واحد فتبع كل منا الآخر ومشيناً في سلسلة منظمة، وفجأة أحسست برفيقي الذي كان الثالث على رقبة حماري، فناء المسكين تحت الضغط فتدحرج زميلي على الطريق، ولكن حماري لحسن حظي أو حظه وقف في اللحظة الأخيرة وأنا لم أفهم من هذه العمليات شيئاً إلا حينما رأيت حمار رفيقي المطروح يخب في مؤخرة الركب وكأن لم يحدث شئ، وكان الجاني في ذلك رفيقي، لأنه اختار ذلك الحمار القمئ بينما هو عملاق، وأخال أن رفيقي الطويل اختاره عمدا لقلة خبرته بهذا النوع من الركوب، فهو قد حسب أنه أمن السقوط مادام أعلى من

حماره، ولكنه بسط قدميه في هذا المضيق فاستقرتا على الحرتين المتجاورتين ونفذ الحمار من بين فخذيه وفي أثره تقدم حماري فوقع ما قصصته سابقاً...

ودخلنا البستان قبل العشاء بقليل فلم نتمتع من مناظره بشيء، ورأينا سراجاً وهاجاً يضيء بقعة لا تضم سوى الحوض المملوء بالماء الجميل وما وضعه أصحابنا المتقدمون من أسباب الراحة حول ذلك الحوض، وكنت أفهم أن زملائي سوف يواصلون الليل بالنهار وعندما ينبثق النور يضعون رؤوسهم الناعسة وينامون ملء جفونهم، ولكن لم أرد أن أضيع على نفسي متعة التمشي في الصبح المبكر بين المروج الخضراء وأشجار الفواكه اليانعة وامتلاء صدري من النسيم العليل البارد والنظر إلى مطلع الشمس حينما تنكسر أشعتها الذهبية على قطرات الندى فوق الشجيرات الخضراء وعلى سطح الماء الهادئ ، فغافلت أصحابي وأسلمت نفسي للنوم بعد الساعة الرابعة من الليل، وبالرغم من عبقرية أصحابي وتفننهم في إيذائي وصدي عن النوم فقد نمت رغماً عنهم وتحملت كل ما استطاعوا من إيذاء...

وكان الصباح جميلاً حقاً فقد جلست على حافة الحوض مستقبلاً البستان ومطلع الشمس، والأطيار تشدو من حولي، وما أكثر حنيني إلى الفاختة ونغمها الرنيم وتصويتها المنظم، وإلى هذه العصافير الصغار التي لا تكاد تستقر على فنن

تزقزق معلنة قدوم النهار، وما أكثر شوقي إلي شم الأزهار العبقة، وها أنا ممسك بإحدى يدي غصناً من شجرة الفل والنسيم يحمل عبيره الزكي إلى أنفي ثم يمر هذا النسيم بين شعري مداعباً إياه برفق، وبقدمي العاريتين ألاعب الحشائش الخضراء فأحس بها كأنها تشاركني في هذه الملاعبة اللطيفة، والشفق علته حمرة كأنه يريد أن يشارك ثمرة هذه النخلة (الحلوة) لوناً كلون زهر القرنفل والجلنار... ما أسعدني بين هذه المناظر وجمالها وكأنها لا تضن عليَّ بحسنها ودلها وكأنها مستسلمة لي كل الاستسلام، أتمتع بها ملء عيني، وأقتطف منها ما أشاء من ذكريات وعهود ذاهب السعادة.

واستسلمت لنوع من التفكير أضناني وألهاني من الاستزادة من التمتع بالمناظر الخلابة لأنني حسدتها وشعرت كأن لا حق لي في مشاركتها السعادة فالكل حولي سعيد، وهذا النخيل المبعثر هنا وهنالك، وهذه البقول الغضة التي تتموج مع النسيم يمنة ويسرة، وهذه الزهور التي تكلل هامات أشجارها بأنواع من ألوان زاهية وعبير يعبق به الجو، وهذه الأطيار التي تنشد أغنية الصباح والشباب تعلن للناس جميعهم سعادتها وغبطتها، فلماذا سرى إليّ تيار السعادة.. ألأني واحد من الوجود الذي خلقه الرب؟ - كما يقول تاغور- إن الجزء يشعر بسعادة الكل وبشقائه أيضاً، أو بتعبير النفسانيين السعادة أن يكون حول نفسك جو زاهر بالسعادة، أم

سحر في جمال هذه الأشياء بما فيها من قوة الشباب المتفجرة وقربها للمثل العالي الذي ترنو إليه النفس. قد يكون سبب سعادتي أحد هذه الأشياء أو جميعها مجتمعة ولكنني أشعر أنني سعيد ومغتبط. هذه صورة من حياة الصيف في المدينة تتكرر كثيراً وتجلب ألواناً من المتع الفكرية.

أحـــلام(*)

(عبد الـرحيم) واحد من أولـئك الجاويـين الـكُثْـر الذيـن يـؤمون هذه البلاد المقدسة للتفقه فـي الديانـة الإسلامـية، وهـو شاب قميئ يـعتم بشال مطرز أبـيض، يؤثر العزلة والإنـفراد على مـخادنـة الناس ومصـادفتـهم، واهـباً حيـاته للكتاب والمحفظة، وكان أهله يجرون عـليه مرتـباً سنويـاً يكفل لـه شيئاً من بلهنية الـعيش وسعـة الحيـاة، وفـي الحرب العـالمـية الثـانـية أمسى فـي معزل عنهم لا يتصل بهم بسبب ولا هم به يتصلون.

وأحـس عـبدالـرحـيـم - لأول مـرة فـي حـيـاتـه - بـالـعزلـة والانـفـراد، ورأى أشـبـاح الـفـقـر والـعـوز تـرقـص حوالـيـه مـهـولـة مـروعـة، وحـلـت بـه الـطـامـة بنـفـاد آخـر قـرش يملـكـه فـي جيبـه، فاضـطر للحصول عـلى مال - أن يبيع بعـض أمتعـته التـي كـان يعزهـا ويـرعـاهـا وبدأت ديـونـه بعـد ذلك تـتسـع بـامـتداد الحـرب واتسـاعـهـا.

---

*) المنهل - المجلد 6 جـ 1 محرم 1365هـ.

وفي يوم من الأيام عاد عبدالرحيم إلى منزله مهيض الجناح، فقد نهره ذلك (الفوال) السمين نهراً أليماً، لأن آخر ميعاد ضربه لإيفاء ما عليه له من دين قد مرعليه يومان، وهذا أشد ما ابتلي به في حياته، ولما كان عزيزاً أبياً لا يرضخ لضيمٍ ثارت شجونه، واستعبرت عيناه كمداً وغيظاً، وقال وهو يغمغم:

- إن الله مع الصابرين.. إن الله مع الصابرين.

ودخل حجرته طارحاً كتابه مكفكفاً دمعه، وهو يردد بين الفينة والأخرى: - إن الله مع الصابرين.

وفجأةً نهض من مكانه، وضرب بيديه إلى سجادة بالية أهدته إياها أمه قبل سنوات سبع، وبيدٍ مرتجفة افترشها على أخلاق الحصر، واستوى فوقها دامي القلب، واستقبل القبلة وقلبه ملئ بالهموم والأشجان القاتلة، وعلى غير شعور منه مضى في سنة نوم عميقة فسمع صوتاً رفيقاً هادئاً يقول له:

- دونك يا عبد الرحيم.. هذه جنيهات ذهبية.. خذها ولكن بشرط.

- أعطنيها.. وهات شرطك:

- ستمتلئ لك هذه الصفيحة بالجنيهات الذهبية يوماً بعد يوم ولكن بشرط أن تنفق كل ما فيها قبل أن تغرب الشمس.

- هاتها فقد قبلت الشرط.

وفي قفزة واحدة كان عبدالرحيم عند الصفيحة المهجورة بصدئها النحاسي، مطلاً بنظراته الحيرى، ممسكاً برأسه، صائحاً:

- حقاً.. هذه جنيهات صفر لامعة .. فهل أنا واهم؟ أم أنا في حلم من الأحلام؟ واغترف بيده مقداراً منها يتبينها ويستوثق من أمرها، وقد غمرته موجة قوية من الفرح كان يشوبها شيءٌ من القلق. وتحدث قائلاً:

- لا يصح أن تبقى هذه الجنيهات في هذا المنزل، فالقفل ليس جيداً، والباب متهافت واهن لا يصمد لمن تحدثه نفسه بالعدوان...

وبدأ يفكر في حلول كثيرة فأضناه التفكير وأعياه!

- هل أحملها إلى شيخنا؟ ولكن من يقنعه بصحة ما أقول؟ هل أودعها عند ذلك البقال الرقيق الحاشية الذي حال بيني وبين الفوال؟ وكيف أوصلها إليه والفوال رابض كالنمر المتوثب في سبيلي؟... هل أنتظر حتى يجن الليل؟ ولكن آه... ولكن فقد آليت على نفسي ألا أستبقيها إلى الليل...

وأخيراً اعتزم أن يبتاع قبل كل شئ، قفلاً قوياً للباب، ثم يفكر بعد ذلك في طريقة الإنفاق.

وتناول جنيهاً وأقفل الباب بدقة وإحكام وتلفت يمنة

ويسرة ووثب إلى السلم يهبط كالممرور، وما أن خرج إلى الهواء الطلق حتى تبين الشمس تستقيم في كبد السماء، فخشي أن يدهمه الظهر ولما يشتر القفل، فأغذَّ المسير ومرق من أمام دائنيه ثابت الخطو والجنان، فقد أصبح إيفاؤه لديونهم شيئا مفروغاً من أمره ولم يقف إلا على حانوتي الخردة، وانتقى قفلاً غالي الثمن فنظر إليه الرجل مستخفاً وقال:

- إذا كنت لا تملك ريالين فدع عنك هذا القفل..

- وحار عبدالرحيم في أمره فقد كان - حقاً - لا يملك ريالاً أو ريالين، وما خطر بباله قط أن يمر على الصيرفي لإبدال الجنيه بالريالات، وفي عودته إليه مضيعة للوقت، ومضناة للجسم، فاختصر الطريق ورمى بالجنيه الذهبي للحانوتي قائلاً:

- خذ هذا ثمناً لقفلك.

وفغر الحانوتي فاه دهشة، وقبل أن يفيق بارحه عبد الرحيم مختفياً بين الزحام، وسرعان ما آب إلى غرفته بعد أن اختبر الباب والقفل، وألقى نظرة عجلى على الصفيحة فتبين له أنها كما تركها، وقام للمرة الثانية ليتأكد من إغلاق الباب - كما ينبغي - ثم جلس القرفصاء على الحصير الخلق وسبح في عوالم التفكير.

- يجب أن أسدد أولاً ديوني ثم أبرح هذا المنزل القذر إلى دار

أتخذ فيها ما أشاء من حشم وخدم، سأبني على فتاة ذات دين وحسب وجمال... سأشتري سيارة... سأفعل... سأفعل... ولكن يجب أن يكون إنفاقي على بينة وتروٍّ، فينبغي أن أعرف حقيقة ما تحتوي هذه الصفيحة من الجنيهات الذهبية ونظر إليها ملياً ثم أطرق وقال:

- كلا ..لا ينبغي أخذ الأمر بالظنة والحدس، لابد من نقدها وعدها. وراقته الفكرة، وأخذ سجادته البالية وقبض على قدر من الجنيهات في حذر وحرص وانتباه خيفة أن يسمع رنينها الجيرة الأدنون.

وبدأ يعدّ:

واحد.. إثنان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة.. إلى أن أتم عشرين جنيهاً فوضعها جانباً واستمر يحصي في حركة آلية - بفعل العادة - أما ذهنه فقد كانت تدغدغه أحلام وآمال.. وطفق يعد، والأكوام تزداد، وتزداد حتى اختلط بعضها ببعض.

وفجأة سمع وقع أقدام خارج الباب، فأنصت في اهتمام وتوقف ملياً عن تعداد الجنيهات وحينما ابتعد صدى الخطوات عاد صاحبنا إلى عمله، غير أنه نسي مقدار ما عد وأحصى فرجع يعد عوداً على بدء..

وهكذا مرت ساعات، لم ينجز في خلالها غير جزء من الصفيحة الذهبية، فداخله الضجر والبرم، وتلاحقت أنفاسه في

الغرفة الموصدة فهب إلى النافذة مستروحاً، ولمست وجهه نسمات الأصيل الندية فأتلع بعنقه متطلعاً، ورأى ذماءاً من الأشعة الغاربة تودع قنن الجبال الشم، فانفتل مأخوذاً مذعوراً وهو يغمغم:

- رباه.. لقد دهمنا المساء، وعليّ أن أنفق ما في هذه قبل أن يؤذن للمغرب. وليست أمامي سوى دقائق معدودات... فما العمل؟

وتملكته حيرة قاسية ومرت بذهنه صور من أسوأ الاحتمالات - إن لم يصل إلى حل حاسم سريع، ورأى أحلامه في الغنى والثراء تكاد تذهب أدراج الرياح السافيات، وتصور نفسه متعمداً إلى السرى خيفة أن تأخذه أعين الدائنين في الغدو الرواح، وتمثلت أمامه أشباح الجوع والفاقة والعري مطبقات غير بعيدات...

إنها دقائق... ودقائق فحسب!

فهل يستطيع خلالها إنفاق هذه الصفيحة الذهبية، واضطربت عضلات وجهه في اختلاط فكري قاتل، وقفز إلى النافذة فرأى الشمس قد تقلصت قليلاً عما قبل، فألقى عمامته وانحط جالساً على الأرض في إعياء وقنوط...

وبغتة أباد السكون الخارجي سعال العجوز البخاري وهو يسعى إلى صلاة المغرب، وحمل الأثير موجات الأصوات إلى

سمع عبدالرحيم، فبعث في رأسه فكرة نهض لها في وثبة المتحفز وفتح الباب بسرعة واندفع نحو البخاري وهو يصيح:

- يا عم عبد الرحمن... يا عم عبدالرحمن...

- فالتفت الجار خلفه، ولحقه عبدالرحيم قائلاً له في ضراعة:

- اصبر يا عم.. اصبر يا عم... أحب أن أقدم لك هدية فهل أنت تقبلها ؟

ووقف عبد الرحيم وهو ينتظر من جاره كلمة تريحه من عناء الضمير وتفتح له إحدى صفحتي حياته: فأما سعادة دائمة، أو عناء دائم، وبعد لأي أجابه البخاري الأشيب قائلاً في صوت مبحوح:

- طيب...

وسر عبدالرحيم بابتسام السعادة له، فإن أياماً باسمة أقبلت إليه - ولا ريب فطار إلى الصفيحة الذهبية وحملها على رأسه عائداً، وحينما شاهده صاحبه البخاري صاح:

- ما هذا ؟ بصل؟

وقد سر عبدالرحيم من لهفة البخاري على البصل المهدى إليه! وعاوده هدوؤه فقال كعادته:

- اصبر يا شيخ!. إن الله مع الصابرين.

ثم أنزل الصفيحة من فوق رأسه وحجبها بيديه ليفاجئ

البخاري العجوز بالهدية الثمينة التي لم تكن مرت بباله، فطلب منه أن يقترب، ومن ثم رفع يديه عن الصفيحة في سرور وهو يقول:

- خذ هذه هدية لك مني خالصة.

وأطل البخاري على الصفيحة وإذا بها تعج بالجنيهات الصفر يكاد بريقها يخطف الأبصار فتراجع منذعراً، وولى مدبراً وهو يقول:

- هذا حرام.. هذا حرام.. هذا حرام يا شيخ...

وفي نفس الوقت ارتفع صوت المؤذن الشجي يدعو المسلمين إلى الصلاة..

ونظر عبدالرحيم إلى الصفيحة، فإذا بها خاوية كأن لم تكن ملآى قبل ساعة... وتقابلت في نفسه موجة من الثورة والجموح بموجة من الاستسلام والرضى فقال مغمضاً:

- ألا يوجد في الدنيا نوال بلا شروط؟

وفتح عبدالرحيم عينيه فوجد أنه قد غفا طويلاً على مصلاه، وكان أذان المغرب مازال يدعو إلى الصلاة، فتوضأ سريعاً وتأبط محفظته وهو يردد:

- إن الله مع الصابرين.

الكأس الأثرية(*)

- 1 -

حين عدت - قبيل - العصر إلى داري، أخبرت أن صديقي إبراهيم، طرق الباب مستعلماً عن وجودي، فلما أحيط علماً بغيابي، خط بضع كلمات في رقعة من ورق، ثم وضعها في يد الخويدم، طالباً منه أن يعطينيها عند عودتي، فتناولت القصاصة من الصبي، وارتقيت الدرج صعداً، ثم نشرتها وأدنيتها من عيني فقرأت:

عزيزي الأخ عباس..

أحضر سريعاً لإنقاذ أخيك وإياك أن تبطئ.. أخوك إبراهيم..

وطويت الورقة ثم نشرتها، ثم طويتها، وأنا أفكر في هذا الأمر الذي ألجأ صديقي إلى أن يزورني في غير أوقات

*) المنهل، المجلد 6 جـ 2 = 1365هـ.

الزيارة المعتادة، وإلى أن يترك لي ورقة يلح فيها علي حضوري سريعاً لإنقاذه.

ما هذه الكوارث التي يمكن أن تحل به، ما هذا الهم الذي يخترم جوانبه، فيريد إنقاذه والتخلص منه؟

كل ما أعلمه أن له عماً استأثرت به المنية قريباً، فهل ألم الفراق، وانفلات العادة يعصفان بنفسه إلى هذا الحد؟ بيد أني لم ألحظ شيئاً من ذلك حين لقي أبوه الحتف قبل سنوات خمس، فكيف يمكن التوفيق بين هذين النقيضين؟

وأخيراً مزقت الورقة بدداً، واعتزمت الذهاب إلى هناك، فتناولت طعامي وارتحت قليلاً ثم وليت وجهي صوب دار الصديق.

وبعد نصف ساعة كنت حيث يقطن إبراهيم منزلاً في قلب حديقة ملتفة الأفنان، وارفة الظلال، وكانت شمس الأصيل تكاد تميل إلى المغيب، فأطلت بوجهها السافر في اصفرار واهن خلال جذوع النخيل السامقات وصافحت أشعة منها وجهي في لطف ولين وفجأة سمعت صوتاً أبح يناديني:

- عباس.. عباس.. إنني في انتظارك.. بالله أسرع أيها الأخ.

فأجبت بصوت عال:

- أين أنت - يا إبراهيم - ما دهاك!

- آه تعال أولاً.

وظهر إبراهيم ووجهه يحاكي شعاعاً غارباً في صفرته وانبهاته، فتقدمت إليه وصافحته في حرارة وأنا أقول:

- ما بك - يا إبراهيم - أتشكو علة؟

- كلا - أيها الصديق -

- وأخذت يده في يدي، فألفيتها ترتجف فقلت له:

- أألمّ بك شيء؟

أجاب وقد تقلص وجهه:

- لا شيء.. لا شيء..

فقلت له في لين:

- تكلم - يا صاح - وأفْضِ إلي بأمرك.. فتنهد طويلاً وقال:

- ليس هو بالسر إنما هو رجاء إلا أنه سخيف.. سخيف جداً.

- هذا لا يهمني

- بل هو جنوني.. لا ريب في ذلك.

- ليكن.

فارتسم الارتياح على وجهه وقال:

- آه.. أنا في حاجة شديدة إليك.

ثم وضعت يدي على كتفه في حنان قائلاً:

- تشجع - إبراهيم - وبح بالأمر.. لا تتردد.

فأجاب متضرعاً وتكاد العبرة تخنقه:

- خلصني منها - أخي - أجل خلصني منها.

- ممن - يا إبراهيم - من هذه التي تتكلم عنها ؟

- هي ليست الذي فهمت.

- لكنني لم أفهم تماماً ما تعني.

فأمسكني من رسغي ورجني قوياً وهو يقول:

- إذن تعال... تعال يا عباس.

وأخذ بيدي فاجتاز بي باب الدار، ومررنا بدهليز طويل ينتهي إلى غرفة منفردة، أحكم إغلاقها بقفل، فأخرج من جيبه مفتاحاً، ووضعه في الفتحة، ثم أداره ذات اليمين، ودفع الباب بيديه ورجع القهقرى وهو يقول:

- أدخل - يا عباس - أدخل وهات الشيء الموضوع على المنضدة الوسطى.

- ولماذا لا تصحبني؟

- آه! إنك لا تعلم.. بالله إلا دخلت وحيداً.

- حسناً؛ سأنفذ رغبتك.

واعتلجت في نفسي بعض المشاعر؛ وانتابتني رهبة من يقتحم مجهولاً، إلا أنني دخلت، فوجدتها غرفة فسيحة الأرجاء، أنيقة المظهر، انبثت الزرابي والأرائك في شرفاتها، وتهدلت سجف مطرزة من كل نافذة منها وبحثت عن المنضدة الوسطى؛ فألفيتها مصنوعة من الخشب الجاوي، زينت قوائمها ببعض النقوش المحفورة، ولم أر على متنها إلا كأساً معدنية صدئة حقيرة، لا تصلح بحال أن تكون مبعث هذا الرعب لصديقي إلا إذا كانت تحتوي على شيء سام خطر؛ وتقدمت نحوها بخطوات ثابتات وأشرفت على الكأس من بعد، واستطعت أن أبصر قرارتها بوضوح فتملكني العجب لأنها لم تكن إلا خالية...

الكأس الأثرية(*)

- 2 -

كيف استطاعت هذه الكأس أن تبعث ذلك الوجل والرعب في صديقي وأن تجعله نهباً للوساوس وهدفاً للأفكار، حقاً أنا أعلم أن صديقي يشكو توتراً في أعصابه منذ سنين، وقد حذرته مغبة الاهتمام الزائد بأعصابه المجهدة، وطلبت منه أن لا يجعل ديدنه التفكير في نفسه وحالته، غير أني على يقين من أنه لم يصغ لنصائحي هذه قط، وليس في مستطاع الإنسان أن يقنع من لا يروم الاقتناع، وأخيراً توفي عمه فهل لهذا من ضلع في انهيار نفسيته وإصابته بالأدواء العصبية؟ هذا ما يخيل إلي؛ بل ما أرجحه وأعتقده، إلا أن ذلك لم يمنعني من أن أبعد من سبيله كل ما يكون سبباً في إثارته، فعولت على أن أواري الكأس عن عينيه، فمددت إليها يدي ووضعتها في جيبي وعدت راجعاً، ولم تقع عيناي على صديقي لا في الممر ولا في الدهليز، وإنما كان في فناء البيت حيث يقطع الوقت جيئة وذهاباً، وما أن رآني حتى رفع عقيرته صائحاً:

---

*) المنهل – المجلد 6 جـ 3 ربيع الأول 1365هـ.

- هل ظفرت بها ؟

- أجل بكل تأكيد.

- حسناً.. حسناً.. إنك لمجدود.

- أو كنت تظن أنها ستفلت من يدي.. (وخطوت نحوه) فصرخ:

- مكانك.. أيها الرجل! ادفنها أولاً ثم قاربني إذا شئت. فأدركت خطأي وغيرت اتجاهي وأنا أخاطبه:

- ارتح في الدار ريثما.. فقاطعني في لهجة ضارعة:

- بربك أدفنها جيداً فقد وأدتها بالأمس في هذه الحديقة فوجدتها - صبح اليوم - على نضدي تطالعني في خبث ودهاء.

- اهدأ واطمئن.. سأريحك منها إلى الأبد. وغبت حيناً! ثم قفلت إلى دار الصديق فألفيته مستنداً إلى الباب وقد لج بي التفكير وأمعن فلما أحس بقدومي ابتسم قليلاً وهو يتمتم:

- صديقي... أشكرك كثيراً... إنك أنقذتني من جنون محقق فسألته متعجباً:

- وهل خشيت أن تكون هذه الكأس الصدئة مصدر جنونك.

- أجل ولا تتعجب.

- أن ألغازك لتحيرني؛ فسألتك الله إلا ما أوضحت لي أمرها.

فأخذني بيدي يقودني إلى الغرفة السابقة وتكلم في لهجة هادئة :

- سأميط لك اللثام عن كل شيء، ودخلنا، وكان المساء قد أرسل غدائره الوُطْف الفاحمة فحجبت عن الكون وجه الضياء، إلا شعاعاً أصهب وانياً انطلق من أسر ضفيرة عاتية، مرتمياً في حضن رَباب أبيض سابح، فخلع عليه حللاً من لونه الذهبي، واتشحت النخيل بغلالة شفة شهباء، ولف الظلامُ أرجاء الدار والغرف والأبهاء، واشتدت الحلكة في غرفتنا فمشى الصديق إلى المصباح يشعله، ودلفت أنا إلى النافذة استقبل أنسام المساء وهي تحمل إلى أنفي أريج الحشائش الندي مشوباً بعبير ذكي من أزاهر برية، وتلقت أذني سقسقة العصافير وهي تدف بالجناح استعداداً للدخول في الأوكار قبل أن يدلهم الليل ويحلولك.

وانتهى الصديق من أمره فسطع النور قوياً وهاجاً وأخذ مقعداً بجانبي، ولما رفعت إليه نظري لحظت أن الدم الغائض بدأ يعود إلى وجناته، إلا أن صدره لم يزل يضطرب تحت جلبابه اللصيق، فتوجهت إليه بالكلام:

الكأس الأثرية(*)

- 3 -

والآن وقد ارتحنا من الكأس المشئومة، فلنهدأ.. فأجابني وهو يطيل التحديق إلي:

- أو تظن أنها لن تعود إليّ..؟

- أنا واثق من ذلك - بحول الله - ثم أردفتُ قائلاً:

- هلا حدثتنا عن أمرها..

- مادمت قد تجشمت كل هذه المشاق في سبيلي فسأقص عليك ما كنت أكتمه عن الجميع.. ثم أردف قائلاً:

- آه نسيت أن أطلب لك شاياً..

فقلت له محتجاً:

- لا داعي لذلك أبداً فعهدي بشربه قريب.. لكنه أصر على رأيه، فقام إلى أهله ليعدوا لنا إبريق شاي لذيذ.. وماعتم أن عاد وأخذ مجلسه أمامي وبدأ يتكلم:

---

*) المنهل - المجلد 4 جـ 10 = 1352هـ.

- سأقص لك أمرها فهل أنت مصغ؟ أجبته في تلهف:

- أجل.. أجل.. كلي إصغاء واستماع..

وبدأ يقص:

كان ذلك قبل عشر سنوات حين توفي والدي عني وكنت أبلغ إذ ذاك خمسة عشر عاماً - وعن أمي وأختي اللتين لا زالتا عائشتين إلى اليوم - كما تعلم ذلك - وكان والدنا قد أقام علينا أخاه وصياً.. وهو الذي اقترن في ميعة صباه بفتاة كاعب حسناء فلما عاجلتها المنية، لم يفكر بعدها في سواها وعاش ودهره عزباً فريداً... ولم يكن عمنا بالذي يلذ له أن يبسط يده عن سعة وسخاء، بل كان في إبداء العظات أكرم منه في إنفاق قروش نحتاجها أنا وأختي لبعض شؤونا، إلا أن لعمي هذا هواية يؤثرها ويرعاها وينفق في سبيلها ما يشاء له هواه وهي جمع التحف والعاديات وحشدها فوق رفوف كل موضع من غرفته، والتحدث عنها لكل من يبدي له رغبته في الاستماع إليه أو من لا يبدي.

وفي صباح يوم من ربيع ناضر، أخذت محفظتي وذهبت أبحث عن كتب بعثرتها - ليلة البارحة حين المذاكرة - وإذا بي أحس بكف ناعمة تلمس كتفي، فألتفت مذعوراً، استطلع مصدر اليد البضة، فرأيت أختي سميحة بشعرها السبط وقد ترقرقت دمعتان في عينيها النجلاوين، وهي صامتة لا تنطق، فسألتها في ضجر وأنا أبحث عن كتبي!

- ما بك - سميحة -؟

وكأنما أطلق كلامي حبيس البكاء من صدرها، فرفعت يديها إلى عينيها وطفقت تتشنج، وأخذتني رقة عليها، فرميت بالمحفظة وأمسكت برسغها قائلاً لها:

- أختي.. أختي.. تكلمي ما بك؟! ولكنها لم تجب.. فسألتها:

- هل أغضبتك أمي.. تكلمي - يا ابنتي -؟ فأجابت وقد اختلط كلامها بالتنهدات المصعدة.

الكأس الأثرية(*)

- 4 -

- دعوت زميلاتي... أن يتغذين على حسابي في الكتاب.. فقلت لها مستعجلاً:

- حسناً وما في ذلك؟.

- ولكن أمي... أمي... لا تعطيني نقوداً، وعذرت أمي؛ فقد كانت... - حقاً - لا تملك شيئاً، سوى بعض الحلي تحتفظ به للملمات.. فسألتها:

- ولماذا لم تطلبي النقود من عمك؟

فتكلمت بعد أن هدأت قليلاً:

- قال: إنه لا يصح للفتيات الصغيرات أن يقمن دعوات خاصة..

فقلت لها مداعباً:

- وأنا أوافق عمي على ذلك..

(*) المنهل - المجلد 6 جـ 7 رجب 1365هـ.

فدفعتني في طفولة مدللة، وقد فتحت فاها في مزيج من ضحك وبكاء وقالت:

- كذاب..

- حسناً.. كم يلزمك لدعوتك هذه..؟

فأجابت فرحة:

- تقول أمي أن خمسة ريالات تفي بالحاجة..

فصحت فزعاً:

- خمسة ريالات... من أين لي بها - يا ابنتي -

فضحكت مغضبة:

- أنت لا تملك خمسة ريالات... سعاد عندها عشرة ريالات والله... رأيتها في صرة بعيني.

ولا أدري ماذا خطر ببالي حين قلت لها:

- سأحضر لك المبلغ - مساء اليوم - بحول الله.. فوثبت إلى الباب وهي تصفق باليدين صائحة:

- أمي... أمي... أخي سيحضر النقود اليوم... فجريت وراءها حتى أدركتها وأمسكتها من كتفها وأنا ألهث:

- اسكتي - يا خبيثة - لا يسمعنك عمي.

فأدركت الموقف في جلاء وصمتت، وقفلت إلى الغرفة

أبحث عن المحفظة والكتب فرتبتها في عجلة، ثم تأبطتها، وتأهبت للنزول ، ولكن صوتاً أوقفني:

- إبراهيم... إبراهيم...

وأصغيت إلى الصوت وتبينت رنته وصحت:

- لبيك... عمي... لبيك..

وبدأت أصعد إلى العِلِّيّة من البيت حيث عمي في غرفته الأثيرة لديه... ترى لماذا يدعوني؟

هل سمع سميحة تتكلم عن دعوتها ، ووعدي لها بإحضار النقود ، أم هناك من أمر آخر، وإذا كنت مصيباً في ظنوني، فسيرميني - حتماً - بالإسراف والتبذير ويلقي على مسامعي محاضرة في منافع الاقتصاد ، ومضار البذل ثم سيمليها علي لأكتبها ، ثم أنسخها كرة أخرى حتى ترسخ في ذهني، ويروي عمي أنه كان يروض بهذه الطريقة حين كان طالباً جامحاً شامساً مثلي - تماماً - وأخيراً طرقت بابه مستأذناً، فجاء الإذن بصوت جهوري:

- ادخل - يا ولد -

فدخلت وألفيت عمي جالساً في شرفة مولياً ظهره إلي وقال:

- تعال هنا.

فأيقنت أن في الأمر تأنيباً على الأقل، وتقدمت صوبه وسرعان ما جثمت على ركبتي وأخذت يده في يدي، أقبلها مرات، ثم انتصبت واقفاً، فأخرج من جيبه قطعة فخار قديمة.. وقال:

- اجلس... يا إبراهيم..

وكان وقت الحضور إلى المدرسة قد أزف، ولم يكن بمستطاعي أن أصارحه بذلك ، فجلست على مضض، وعمدت إلى الصمت العميق لئلا أوسع أمامه مجال القول، فبدأت نظراتي تنهب الغرفة، ووقع بصري على ما وقع عليه مئات المرات: أطباق الصيني يرجع عهد صنعها كما يزعم - عمي - إلى آلاف السنوات الطوال، وأباريق شاي، وحنفية صغيرة، وسيوف صدئة وقراب لها بالية، ورماح مشرعة نخرها السوس، وفصوص وأحجار، وأشياء أخرى لا تحصى، كلها أثرية ذات قيم عظيمة يعزها ويفخر باقتنائها.

وفجأة أيقظني من إغفاءتي بصوته وهو يبسط يده بقطعة الفخار:

- هذه قطعة أثرية رائعة اشتريتها من حاج صيني التقيت به صدفة في الحرم.. فأخذتها في يدي مقلباً، وأنا أحمد الله على أن بدد أوهامي، وتصنعت لهجة العارف:

- ما شاء الله.. ما شاء الله... إنها لقطعة فريدة وخلل عمي لحيته البيضاء بأصابعه وبدأ يتكلم:

- ليس اقتناء العاديات بالأمر الهين، فقد طويت - في مرة من المرات مائتي ميل في أراضي التبت لشراء هذا الإبريق الذي تراه على الرف الأوسط.. فقلت من غير وعي مني:

- ومتى كان ذلك - يا عمي -؟

فنزع عمامته، وغير جلسته، وتهيأ ليقص عليّ مغامراته في التبت.. فأردت أن أغير اتجاه الحديث بسؤال ألقيته في سذاجة مصطنعة:

- ولكن - يا عمي - ما الفائدة من اقتناء هذه الأثريات..؟ فزوى ما بين عينه ثم قال:

- إن ربحها يزداد بمرور الزمن، وإن الهاوي الراغب قد يبذل أموالاً طائلة لشراء قطعة أثرية لم تكن ذات بال عندك.. فسألته على الفور لأشغله عن العودة إلى مغامراته:

- وكيف يفرق المرء بين الثمين والغث من القطع..؟ فارتاح في جلسته وأجاب:

- على كل فهنالك علائم لا تخفى على الخبير، والمسألة - بعد - لا تعدو تجارب السنين وخبرة الزمن.. ثم أردف قائلاً:

- وما رأيك في هذه..؟ قلت له:

- إنها لشيء عظيم.. لا يقدر بثمن مهما غلا.. فابتسم وخاطبني قائلاً:

- تستطيع أن تنصرف الآن.

وكدت أن أفاتحه بشأن سميحة، لو لا ما أعلمه من عناده وصلابته، فاقتسمني الأمران وأبطأت في القيام؛ فلاحظ قلقي وقال:

- ما بك.. أتريد أن تفضي إلى بشيء...؟

فأجبت على عجل:

سميحة...

فقاطعني :

- امض في سبيلك - يا إبراهيم - فأنا لا أريد أن تنشأ هذه البنية على خلة مرذولة..

فقلت له:

- إنها مرة في العمر، ولن تلحف عليك - بعد اليوم - في السؤال.

- ولكن هذه المرة ستجر وراءها مرات، وإن معظم النار من مستصغر الشرر.. وأردت أن أتكلم ، فأردف صائحاً:

- أمض في سبيلك - يا إبراهيم -

فقبلت يده وهبطت منصرفاً، وأنا نهب الأفكار، ما معنى

هذا التناقض الذي يتجلى في بذله الجم من المال في سبيل قنية واحدة، وإمساكه النزر من المال في سبيل دعوة تقيمها سميحة...؟

وشعرت أن نفسي تقلق وتثور، وإن ثقلاً ما يجثم على إحساسي، فجاشت عواطفي وتملكني غضب مكبوت مكتوم، وأخال أن والدتي التي تنتظرني في الطابق الأوسط قد لمحت على محياي سمة من غضب فسألتني في لهفة:

- عساه خير...

فخفف عني حبها بعض ما بي.. وقلت من غير أن أقف:

- أجل خير..

وأطلت أختي من خلف أمي صائحة:

- أخي.. لا تنس ما وعدتني..

فلم أجبها، وواصلت هبوطي، واستولت علي نوبة من غيظ حانق، لقد أقام علينا والدنا هذا العجوز وصياً وتجلت الأثرة والأنانية صارخة واضحة في أعماله، فهو ينفق ما يشاء على هواه، ويحبس ما يشاء عنا، وأنا لا أصبر إلى تقويم خطئه سبلاً ولا إلى إفهامه خطأه طريقاً... فما العمل؟.

إنه لا حل لهذه المعضلة إلا أن نستمر في قطيعته وأن نجعله يعيش بيننا غريباً فريداً...

وما عتمت أن وصلت الدهليز، وما كدت أخطو خطوات حتى تعثرت بشيء في الظلام؛ لأن الباب كان موصداً وكانت لهذا الشيء رنة معدنية؛ فأحنيت جذعي وطفقت أبحث عنه؛ وإذا بي ألمس كأساً معدنية حقيرة علاها صدأ السنين؛ فهممت برميها، إلا أن خاطراً انبثق في ذهني...

لماذا لا تكون هذه الكأس كأثريات عمي ما الفرق بين هذه وتلك..؟

ما الذي يمنعها من أن تكون أثرية وقد نال منها الزمن ما نال، وفجأة اهتديت إلى فكرة غريبة، وغمغمت قائلاً:

- سأنفذها.. سأنفذها.

الكأس الأثرية(*)

- 5 -

ووضعت الكأس في جيبي، وبدل أن أعدو لأصل إلى المدرسة في الميعاد المحدد، يممت صوب دار سمسار قام بدور الوسيط في أكثر ما ابتاع عمي من قطعه الأثرية.. وطرقت بابه، وسرعان ما نزل يسأل من الطارق. ؟ فلما تبينني استفسر عما أريد، فأسررت في أذنه كلمات وأعطيته الكأس الصغيرة، فأجاب بصوت عال:

- حسناً... مر على داري عقب انصرافك من المدرسة.. ولما عدت إليه في أصيل اليوم استقبلني باشاً وهو يقول:

- لقد أعجب عمك بالكأس الأثرية.

- وهل أريته الكتابة...

- نعم... نعم... بكل تأكيد..

- كم دفع لك من ثمن لها..؟

---

*) المنهل - المجلد 6 جـ 8 شعبان 1365هـ.

- خمسة عشر ريالاً، عشرة منها لك والباقي... فقاطعته فرحاً:

- حسن... عشرة ريالات..

وناولني عشرة ريالات فوضعتها في جيبي، واتخذت سبيلي إلى البيت، وقد تملكني سرور غامر على أني استطعت أن أفي بالوعد الذي قطعته لسميحة، إلا أنني أحسست إنما خدعت شخصاً وارتكبت جريمة لأول مرة في حياتي، وحدثت نفسي أن هذا الشخص يجب أن يخدع، لأنه أناني أشر، استولى على أموال أبي فحال بيننا وبينها، وفرض علينا حياة قاسية لا رحمة فيها ولا شفقة.

ما كان يضره لو حاد مرة في عمره عن مبدئه السقيم فأعطى سميحة ريالات خمسة لتفرح بها يوماً:

لكنه ذلك المتحجر الذي يفرض علينا شحه الصارم فرضاً.. إذن ليست بخديعة تلك التي يستخلص فيها المرء بضعة ريالات منه.

إلا أن هذا القليل ما كان ليخفف من أشجاني وآلامي، فقد شعرت أني انحططت عن ذلك المستوى الذي كان يشبع كبريائي، وأنني فقدت كل مقومات الحياة، وأمسيت هيكلاً من آثام تعصف به الآلام، ورأيت زميلين يتحادثان في نجوى ووجوهاهما ينطقان عن سريرتهما البيضاء، فوددت لو كنت

مثلهما ساعة من زمن، لما كان لي من أمل سواه في حياتي إلا أن ذلك كان بعيداً، بعد الراحة والطمأنينة عن نفسي.

آه لو أجد من يعيدني لحظة إلى عالمي المفقود، أو أن يرجع عذوبة الصفاء دقائقَ إلى قلبي الملوث بأدران الخيانة والغدر، لبذلت له حياتي من غير أن تتملكني الحسرات في يوم من الأيام، مالي ولسميحة، لو صدفت عنها لنسيت يوماً ما أنها طلبتني شيئاً، لم أجبها فيه، ولكنني أنا البائس لن ينسيني الزمن الدائر ذلك اليوم الذي بعت فيه نقاوتي بدراهم معدودات، لا تسمن ولا تغني من جوع.. وهكذا وصلت الدار بائساً محطماً، وتحاملت على نفسي فصعدت حيث أمي وأختي كانت في انتظاري.. وما أن رأتني سميحة، حتى تعلقت بي وهي تصيح:

- أخي.. حبيبي.. أخبرني هل أتيت بالنقود. فأخرجت النقود من جيبي ووضعتها في يد أختي، فابتسمت فرحة جذلى وقالت أمي:

- هل اقترضتها من أحد..؟ فلم أجبها ومضيت إلى غرفتي لا ألوي على شيء، ولحقت بي أمي وهي تسأل منزعجة:

- ما بك - يا ابني - أراك متغيراً.

وما كاد إبراهيم يصل إلى هذا الموضع من قصته، حتى نقر باب الغرفة؛ فبارحني، وعاد بعد قليل وفي يده طبق فوقه

إبريق وبعض الفناجين، فسكب الشاي في فنجانين، قدم لي أحدهما، وأبقى الآخر لنفسه.. وعمدت إلى الصمت الطويل وتركته يقص كما يشاء؛ ينفس عن أعصابه الرَّهَق، وأخذ رشفة من فنجانه ثم استطرد: وآوى كلٌّ خالٍ تلك الليلة إلى فراشه، إلا أنا فقد تأبى النوم على جفوني.. فجلست في الشرفة استشف المبهم من الأشياء في ليلة حالكة، إلا أن ظلام نفسي كان أحلك وأدهى، وتركز تفكيري في شيء واحد لا يتعداه وهو التكفير العاجل.

هل أعترف لعمي بأني خدعته، مستغلا طيبة قلبه وسذاجة نفسه، ترى ما يكون موقفي بعد ذلك؟

هل يبقى لحياتي معنى وغرض وهدف، أم أمسي شبحاً تائهاً بين الحياة ومفاوزها.؟

ما الذي يقومني بين أبناء جنسي؟

أليس شرفي وضميري ومثلي؟ فإذا فقدتها جميعاً خسرت الإيمان بنفسي، وتعساً لمن يهيم في الحياة بغير إيمان..

إذن ما السبيل إلى التكفير عن سيئاتي..؟

هنالك استطاعت نفسي أن تجد حلاً أرضاني إلى حد مّا، سأجعل عمي يكثر من إساءتي... سأثيره... سأجعله يستوفي ثمن خديعتي كاملاً لا نقص فيه، سأرغمه على أن يقذع في

شتمي، وأن يكثر من إيلامي لأكف عن حدبةٍ انحدرتُ إليها من غير روية وتدبر.

وسمعت سعال عمي وهو يشق سكون الليل، فتصورت هذا الشبح الفاني المصاب بشتى الأدواء يخاتله شاب قوي متماسك لا يشكو ببدنه مرضاً.. فأحسست أن كل نبرة من نبرات سعاله أنين متواصل يبث إلى الله ضعفه وتهافته، فتصورت في جلاء ذلك الدرك الذي ترديت إليه من شاهق..

ولا أعلم كيف غفوت وكيف صحوت في اليوم التالي حين دعاني عمي وصعدت إليه، فأجلسني بجانبه، وأنا جامد كالحجر الصلد، لا أعي من حولي.. فأخرج تلك الكأس وأرانيها قائلاً:

- أظن - يا إبراهيم - أن هذه خير قطعة أقتنيها، فقد قرأت عليها بالمجهر كتابة مجهولة، أخالها تعود إلى عهد سحيق.. فلم أجب إذ كنت أفكر في أن أخطف الكأس من يديه المعروقتين، وألقيها بملء قوتي خارج الدار، إلا أن الجبن عاودني، فارتفعتْ يدي في عجل ثم ارتخت، فسألني في قلق:

- ما بك.. يا إبراهيم - أراك تنتفض - ...أتشكو علة..؟
أجبته بصوت خاو من كل معنى:

- كلا - ياعمي - لست أشكو شيئاً.

فقام متهالكاً وفتح صيواناً زاخراً بالأدوية وأخرج منه حبة كنين وأخرى اسبريناً وعاد يقول:

- ابراهيم... ابلع... ابلع هذه...

وتصورت انتصار عمي جلياً ، فهو يعطف ويشفق علي يضيف إلى آلامي آلاماً، وإلى أشجاني أشجاناً...

إنه لانتقام مرعب مهول...

حسناً... سأبدأ في إثارته، لإنقاص ثمن الختل والخداع.. فقمت عليه قائلاً بصوت مقبور وأنا أرتعش.

- عمي ... أنا أكرهك...أكرهك من قلبي.. ثم ارتميت على الأرض من إعيائي، وخف عمي بضعفه - إلي وهو يتمتم:

- إن هذا الولد مريض... إن هذا الولد مريض.

ومضت أيام وأنا لا أجسر على رؤية عمي، ثم أخبرتني أمي، إنه مرض ولزم فراشه، ومرت أسابيع انحطت فيه قواه أشرف فيها على نهايته...

وفي يوم - أذكر أنه كان يوم جمعة - استدعاني عمي، فلبيت طلبه، ولما دخلت عليه ألفيته شبحاً من الأشباح متمدداً على سرير ضخم.

فأخذت يده الناحلة في يدي وقبلتها في رفق فقال بصوت واهن متقطع:

- اجلس... بجانبي.

فلما أطعته.. أردف:

- إبراهيم.. أنا أعرف أنك لم تزرني خجلاً من كلمتك التي هذيت بها أثناء مرضك.

فسكت ولم أحرك شفتي بكلمة واحدة، ثم قال:

- إبراهيم... أنا أعلم أنك تحبني وأنا أحبك لأنك شاب ذكي صالح.

فصعدت الدماء إلى رأسي حارة واقعة واختلطت المرئيات أمامي، وخشيت أن أخدع هذا الشخص كرة أخرى على فراش الموت فقلت له في حزم:

- اسمع - يا عماه - أنا لست صالحاً كما تظن وإنما...

فرفع يده الراعشة ، ووضعها على فمي وهو يقول:

- كلا... كلا... لا يشعر بخطئه إلا الصالح.. ثم مد يده إلى جانبه، فإذا بها تقبض على صرة فقال:

- إبراهيم... هذه مائة جنيه من مالي الخالص.. وأنني لأهبها لك قبل موتي... كما أترك لك أثرياتي جميعها فأنت خير من يقدرها...

وأخذت منه الصرة وانحدرت دمعتان من نار على خدي، وها هو عمي قد حقق انتصاره الآخر علي - أيضاً - وخطر

ببالي أن أطلب منه الصفح قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، إلا أن لساني استحال قطعة من حجر: لا قدرة لها على النطق، وهكذا مات عمي ولم أطلب غفرانه...

وساءت صحبتي بالكأس... ... ولكن هل تظن أنها لن تعود إلى حياتي؟

أما أنا فواثق من أنها لن تفارقني إلى الأبد...

شهرزاد (*)

- 1 -

فلما كانت الليلة الرابعة بعد الألف جلست شهرزاد على مخدة من حرير معصفر، وضعت على أريكة من خشب الآبنوس المطعم بالعاج الجميل؛ واتخذ الملك ضجعته على مرتبة محشوة بزغب الطيور الناعم، وثنى خلف ظهره متكأين من حرير أخضر فاتح، رسمت عليه يد فنان مبدع صورة غزال نافر يود لو يفلت من سهم صياد يصيبه، ورفعت شهرزاد عينيها الناعستين إلى ثريا مدلاة من السقف الصقيل، فانزاح خمارها الناعم الأبيض عن شعرها الحفْل، كقطرات من أنداء الصباح تنحدر عن وجه وردة في ظلمة ليل ذاهب، وأطالت شهرزاد النظر إلى رقصة الثريا على خفقة النسيم العليل وهو يلامس ألوفاً من مضلعات زجاجية، فيكون لصدامها السرمدي إيقاع حلو ناعم، وتنبعث الأضواء من مئات المصابيح في ألوان طيف الشمس المختلفة مرانية ساهمة حالمة راقصة.

---

*) المنهل - المجلد 7 جـ 8 رجب 1366هـ.

أما شهر زاد فكانت عيناها لا تفارقان أفاعي دخان البخور المائجة، وهي تصعد من مجمرة فضية موضوعة يمين أريكة الملك، وما تكاد ترتفع قليلاً حتى تذهب بدداً في الهواء، وتمج شذاها العطري في كل همسة من نسيم.

وفجأة أرخت شهرزاد رأسها، ذهبت تقص والملك يستمع، وسرى الجو السحري والموسيقي الهادئة وقصص شهرزاد خدراً حلواً ناعماً في جسد شهريار، فأسلم عينه لإغفاءة قليلة، ولحظت شهرزاد انصراف زوجها عن القصص، وأدركت أنها قصت خلال هذه السنوات الطوال نوعاً واحداً منه فقط، وهو هذا السرد، إن امتاز بالتلوين الصارخ الحار وبالنضال المستمر الوحي، فهو خلي من اشتباك العواطف في صراع نفس، ومن ثم اعتزمت أن تجرعه منبهاً قوياً يرجه رجاً، ويذيب سأمه في بحر هدار من انفعالات النفس الإنسانية، واقتربت شهرزاد من زوجها ونادته:

- مولاي.

فصحا الملك من غفوته وأجاب مبتسماً:

- نعم - شهرزاد -

- أيود ملك الزمان أن أقص على مسمعيه نوعاً جديداً من القصص يسمونه الواقعي.

- لا أدري ما يكون هذا الواقعي، إلا أنني أفوض أمر الخيار إليك.

- قالت شهر زاد: سأقص عليك -مولاي- قصة (المجانين الثلاثة)، فقد اجتمع هؤلاء في دار دعوا فيها، وشاء الرحمن أن يخر عليهم البيت، وأن ينعزلوا في مكان لا يستطيعون منه الخروج، فرأوا أن يقص كلٌ منهم أمر جنونه دفعاً للسأم وتبديدا للوقت ريثما تصل إليهم معاول المنجدين، فتقدم أحدهم وقال: سأبدأ أنا.. ومضى يقول:

- لو كنت مجنوناً لمضيت أقص حياتي كما يقص العاقلون، حسناً!! وما يهمني أن أكون عاقلاً أو مجنوناً مادام في استطاعتي أن أقص وفي استطاعتكما أن تصغيا وعند تلك النهاية القريبة البعيدة سيظهر لكما حق ما أقول:

كان لي ككلٍّ منكما أسرة، ليست من غصنين أو ثلاثة، وإنما من أغصان مشعَّبة مفرّعة، وكان جدي رحمة الله عليه مزواجاً شديد الأسرة قوي البنية، خلف ثلاثة بنين وست بنات أما البنات فأراحنا الله شرهنَّ حين تزوجن، وأما البنون فكان أكبرهم سنا والدي...

سيقول أحدكما: حسناً.. وما في ذلك؟ فكل منا له العم الواحد والاثنان والعمات الكثيرات.. وسأجيب أنا: نعم!.. لا غرابة في ذلك ماداموا يتزوجون وينفردون في بيوت شتى فيكونون عائلات وأسراً شتى، أما وأن يجتمعوا كالنمل في خلية واحدة ، فربما كان ذلك ممكناً في تلك المخلوقات التي أجرى الله في أعصابها الرتابة والنظام، أما هذه المخلوقات

الآدمية فقد وهبها الله غرائز تأبي التعاون والتساند، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ولنعد إلى قصتنا.. وتزوج والدي من امرأة هيفاء ذات وجه شاحب أصفر، هي مثال للجمال الهادئ الحزين، ولكن في دمها الأصفر ثورة وجنون.. وكثيراً ما كانت تلطم وجهها مولولة حين يفرض عليها أبي إرادته ويرغمها على ما لا ترغب فيه، ترضاه.. ويظهر أنني ورثت أعصابها.. فهكذا المجانين يعلمون من أنفسهم ما لا يعلمه العاقلون.

أجل! ولم أكن وحيد والدي وإن كنت أكبر إخوتي، وأثمرتْ أمس في ربيع شبابها مرتين بعد ولادتي، فولدت ابنتين اثنتين، ثم صوحتها - فجأة - عوادي الخريف فجفّت ولم تنجب.

أجل! وتزوج عماي وأنجبا بنين وبنات، فتضخمت الأسرة وتشعبت فروعها وشجونها، وضاق بنا البيت - وقد كنا نملكه - فرأى الآباء أن يوسعوا فيه، وأن يبنوا طبقة فوق العلّية، وتضاربت الآراء وذهبت كل مذهب، وانقسم البيت إلى فريقين فريق يؤيد البناء، وفريق يرى أن ننفصل ونسكن في بيوت شتى، وكنت على رأس المعارضة، ولا أرى كيف تدفق النشاط في أعصابي الكسْلَى الواهنة، ورحت أقنع هذا وذاك، واستطعت أن أكسب أمي بجانبي وأختي الصغيرة - ليلى -، وقد كانت نسخة ثانية من أمي بتقاطيعها الدقيقة المرهفة

ووجهها الشاحب الحزين، وقد كانت لدي أثيرة، وكنت أحفيها خالص الود والمحبة.

ولكن وا أسفاه ! فقد كان البيت كله يصارعني ويناصبني العداء وانهزمنا وانتصروا.

ومعنى ذلك أننا لبثنا متصلين - كما كنا من قبل - على دخَلٍ وشحناء، ولا أراني إلا عاجزاً عن وصف ذلك الفور الذي كان يقرض قلبي ، وكنت كمن شمر عن ساقيه لا ليجري في فسح من الأرض جامد صلب، وإنما ليخوض وحلاً كريها ما من خوضه بد، ذلك الاشمئزاز بدأ معي وأنا لم أزل صغيراً طري الأظافر، وكبر معي حتى ملك على شعاب قلبي.

ولعلكما لاتريدان أن أقص على مسمعيكما نبأ تلك الخيوط الدقيقة الصُّلْبة التي كانت تحاك من أبناء عمي بليل لينسجوا حولي شراكاً من مكرٍ وخديعة، ولعله - يحسن بكما - أن لا تصدقاني، فأنا كثير الريب والشكوك، أخفيها في سريرتي حيناً، وأفضحها حيناً... أو لو أردت أن أنبذها وألفظها لوجدت إلى ذلك سبيلاً... هذا ما لا أدريه.

ولا أطيل عليكما القول، فقد كبرت أختاي، وأصبح الحديث عن زواجهنَّ دائراً على الألسنة في البيت، وكان المرشحان لزواجهما ابني عمي أحمد وعلياً، وبديهي أن لا يروقني هذا الزواج وأن أفضل أن تتزوجا من شابين كفئين من

خارج الأسرة، وقبضت بيد على علم المعارضة مرة أخرى، ورحت أجاهد وأجاهد، وانضوى تحت لوائي- كالمعتاد - كل من أمي وأختي، واستطعت أن أكسب شخصاً بجانبي له قيمته في الأسرة وهو عمي أبو أحمد.

وخيل إلي أن المقاومة من الطرف الآخر قد فترت، وكان النصر يعقد لواءه لي، لولا أن والدي فصل الأمر بكلمة باتة حاسمة، وعنئذٍ شعرت بأن قدمي لا تطيقان حمل جسمي، فقد كانت الهزيمة - بعد أن أوشك النصر أن يكون لي - شديدة ثقيلة الوطء على جسمي الضئيل.

واعتزمت من ذلك اليوم العزلة والانفراد، وآثرت الخمول على نشاطٍ ينهيه والدي بكلمة تلفظها شفتاه، ولحظت أمي بقلبها اليقظ وبصيرتها النافذة ما أعاني وأقاسي، وما أحيله على أعصابي المكدورة من رغبات وأهواء مدفونة مكبوتة، وخلتْ بي يوماً في الدرج بعد ما أعلن زواج الأختين من ابني العم وكنت وقتئذٍ على وشك الخروج:

- صالح - ابني - إنني لأقرأ على وجهك ما تخفيه، وإنني لأدعوك - اليوم إلى اطراح ما بينك وبين أبيك... فهل تجيب؟.. تكلم.. تكلم... بني..

ثم مدت إلي أمي ذراعيها، وأمسكت يسراها كتفي وبدأت تخلل بأصابع يدها اليمنى شعري الأشعث.. فاحتوتني

لحظات انعدم فيها الشعور بالزمن، وكأن الآلام تبخرت من رأسي بلمسة ساحر، وانتعشت المرئيات في دماغي مرحةً بهية راقصة، وأدركت في تلك الساعة أن البرزخ الذي يفصل بين الأفراح والأتراح والسعادة والشقاء واليأس والرجاء، وأن شق عبوره على غرة البشر أجمعين، فهو لا يشق إلا على يد رقيقة بضة لا تملك من قوة سوى الحب.

حقاً لقد أمدتني هذه اللمسة على أن أستمر في ذلك الجو الذي يخنق الأنفاس سنتين متواليتين، وأختصر وأقول: إن في نهايتها ولدت أختي الكبيرة من ابن عمي سالم ولداً ذكراً، وكنت آنئذ في قطيعة مع الأسرة كلها، ماعدا أمي وليلى، وكان الجميع يعتقدون أن بي لوثة وجنوناً تبعدانني عنهم، وربما كانوا على حق فيما يقولون، ولو أنني رأيتني مضطراً لأن أطمئن على صحة أختي وصحة المولود الجديد.

لقد كان الطفل زهرة مفتحة ناضرة، ممتلئاً صحة ونشاطاً وقد ورث من أبيه عينيه السوداوين الجميلتين وأهدابه الوُطْف الغرار، فأخذته بين يدي وقبلته في فمه الغض الطري، وكانت أختي ليلى واقفة بالقرب مني، وهي ترنو إلى الطفل، وانطلق بصري انطلاقاً جانبياً، ووقع على وجه ليلى وبدنها كنور حالم وانٍ يمسح أطراف الظلام في هدوء أبدي... ولحظت شيئاً عجيباً.

حقاً - ما أشد غباوتي! ألم أر ليلى طوال هذه المدة؟ أم

ما الأمر؟ إنني لم ألحظ قط على وجهها هذا الشحوب الذابل، ولا هذا الغدير الذي تردت فيه عيناها المجهدتان.

آه - ليلى - لقد تذكرت وأدركت أنها ولا ريب تلك الأقاويل والأراجيف التي كانت تطفر من بعض الألسنة في الدار والتي كانت تهمس أحياناً - لا بالأفواه - ولكن بالأعين والإشارات. وأنا أعلم الناس يا ليلى برهافة أعصابك وشدة إحساسك أنا أعرفك - يا أختي - لأنه يخيل إلي أنني أعرف نفسي، وقد سمعت كثيراً مما يقال عنك وعن زوجك مصطفى، وسمعت كثيراً عن الأدوية التي وصفت لكما، والتي أراني لا أقر منها شيئاً، وإن كنت أنت تقرّينه، فموقفي يتباين عن موقفك، لأنني مازلت محتفظاً بحيادي في المسألة، ما أنت - أيتها المرهفة- التي تُرمى بالعقم، فالمسألة بالنسبة إليك مسألة موت أو حياة، مسألة نوع يستمر أو ينقطع، ولذلك فلا شك أن حكمك عليه سيكون غير حكمي، ليلى... أخال أن الله يريد أن يبلوك، وأراني كأنني أستطيع التكهن... فصبراً جميلاً - أختاه -.

شهرزاد (*)

- 2 -

أستطيع التكهن... فصبراً جميلاً - أختاه -

رويدكما - يا سامعَيّ - فربما همستما شامتين أين قصة جنونك؟ وحقاً أقول: إنها تبدأ الآن.

أجل لقد كنت مجنوناً، ولا أعلم الآن أعاقل أنا أم مجنون؟ وإنما حسبكما أن تسمعا مني ما أسميه الجنون، ثم ليختر أحدكما واحداً من أمرين، فأما أن تنسبني إلى العقل وإما أن تنسبني إلى الجنون وكلاهما لديّ سيان.. وأخالني كنت أشعر بالأمرين - معاً - في بادئ الأمر، فكنت حيناً أنصت إلى دبيب العقل، وهو يدق علي الباب دقاً رقيقاً حالماً ، وكنت حيناً آخر أجد الجنون وقد تخطى الحواجز والقيود، واقتحمني اقتحاماً كأنه الفوضى المعربدة السكرى، وكنت بخير ما دام الشعوران منفصلين؛ فلما تعانقا وتفانيا لم أجد شعوراً

*) **المنهل - المجلد** 6 **جـ** 10 **رمضان** 1366**هـ.**

واحداً يأخذ بكظمي! كنت أراه العقل كل العقل والناس يرونه الجنون كل الجنون.

آه لا أدري متى قيل لي: إن ليلى حبلت، وأن مولودها ربما استقبل الحياة بعد شهر أو شهرين؛ ومر عليّ الخبر بادئ ذي بدء لم أعره التفاتاً ذا بال، ولكن عندما سحب الليل دثاره على الدنيا النائمة، وأردت أن أستسلم لأحضان الكرى، تمنّع علي وأبى، وغمرتني شكوك ساحقة ماحقة؛ أجل لم أذق ليلتها طعم النوم ولكني ذقت حنظلاً مراً وصاباً، لقد مرت بذهني المكدود آلاف من صور سوداء رقصت رقصاً جنونياً، وفكرت في آلاف من الاحتمالات، ونفيت آلافاً منها إلا حادثاً لم أستطع أن أطرحه من حسابي، لقد كان ذلك في ليلة حالكة قاتمة، وكان الجميع فيها نائماً، إلا أنا، فقد سهرت وأرقت عيني، وجلست في نافذة العلّية استشف المجهول من وراء الظلمات، وإذا بأذني تلتقط حسيساً لقدم مارة، وقمتُ من مكاني وجريت نحو الباب حافياً وانتظرتُ لحظة، فلما انبتّ الدعس الخفيف، فتحتُ الباب وتخطيته، وكان أمامي ممر وعلى يميني غرفة يسكنها أبي وأمي، وعلى يساري مستراح ودرج الدار العمومي وآخر يصل هذه الطبقة بالأخرى، وخيل إليّ أني لمحت شبحاً مال ناحية الدرج، وكان الظلام مرسلاً ذوائبه السود على الدار، وداخلني الرعب إلى حد ما، ولكنني سيطرت على أعصابي، وتقدمت إلى الشبح الموارب وصحت خافضاً صوتي:

- من أنت؟

ولم يجب الشبح، بل ظل واقفاً كالصنم، فقبضت على ذراعيه فإذا هي رقيقة ناعمة... وإذا هي ليلى..

- ليلى! ماذا تفعلين هنا في ظلام الليل؟

لم تجبني ليلى فتركتها، وانقلبت راجعاً إلى غرفتي وأنا أقول:

- مسكينة ليلى هذه تسهر ليلها لأنها لم تكن والدة بعد كأختها.. فالله لك - يا ليلى -

هذا كان تعليلي أولاً، وكنت أود أن يكون التعليل الوحيد إلى الأبد، ولكن أنا النشوان يخمر الشكوك القاتلة لا أقف عند رأي أو تعليل، حتى أقلبه على ألف وجه، ثم أتمسك بأوهن وجه وأضعفه، أجل لقد أخذت هذا الحادث ونسجت حوله قصوراً من ريب كريهة ممقوتة، ثم أضفت الجزء إلى الجزء فإذا الكل نتيجة مهلكة قاتلة؛ وإذا أنا مجنون ما في جنوني من شك.

قد أكون مجنوناً حقاً أو قد أكون غيوراً حساساً ثُلّمَ شرفهُ ولطّخ بالدنس... لست أدري... لست أدري... ماذا تعني هذه الخيانة بالنسبة لي إن صح أنها دبرت بليل أو فرضت على ليلى فرضاً..

لا ريب أنني أشعر - إن بقي شعوري على صدقه - أن شيئاً مني نقص، وأن شخصيتي يتهددها الانهيار والدمار، وأنني في غمرة الدفاع عن نفسي ألقي التبعة على غيري.

آه إن رأسي ليكاد ينفجر، وإن الدماء لتغلي في شراييني وإن الأهواء والرغبات لتتصارع وتتقاتل في داخل نفسي كوحوش ضارية أفلتت في جموح من أقفاصها فهي في قتال وحشي عنيف. عونك ربي... إن الأرض لتتزلزل من تحت أقدامي وأنا على شفا هوة فاتحة فاها في مسغبة جنونية، وإنني لأخشى أن أتردى فيها خالداً أبداً... أجل لم تبق لي إلا قشة واحدة من أمل.

وإنني لأتشبث بها، ولو أنني أحس وهنها في يدي...

أمل واحد فحسب بقي لي في دنياي، وأنني لأرجو أن يقيني من الانحدار إلى قبر الجنون، وذلك أن أنتظر قليلا حتى تضع ليلى، وحتى أقرأ على ملامح طفلها ما سطرته الليالي...

لقد انتظرت قليلاً أو كثيراً، وها هو النبأ يصلني، وها أنا أسرع والليل من حولي معتكر دامس، ودخلتُ على ليلى كالقذيفة الملفوفة من جوف بركان، لم أسأل عنها وما بي إلى سؤالها من حاجة، أريد أن أتثبت من ملامح ابنها؛ أجل إنه الابن، أريد أن أقرأ في عينيه ذلك السجل المطوي في

أعـماقـي، إن بـيـنـي وبـين الجنــون ما بـيـنـي وبـين مـهده مـن خطوات.. فرحماك - ربي - رحماك إن فرائصي لترتعد، وإن يدي لترتعش، وإنني لأجتاز منطقة حرماً.. أجل.. إنني لأرى بعيني أشباحاً وحيات تطل علي من كل صوب، وإنني لأحس أنفاسها القذرة تختلط بأنسامي، إن ألسنتها الطويلة الحمراء ذوات الشعب الكثيرة لتنفث سماً وناراً.. وإنني لأجد ملمسها الوسخ الكريه على وجهي وعيني..

وكان شهريار قد بدأ ينفعل من القصة ، حتى استوى قاعداً على أريكته.

وما كادت شهرزاد تنتهي إلى هذا الموضوع حتى رقصت الأضواء الملونة على وجهه وصاح. كفى.. كفى.. شهرزاد.

أجابت شهرزاد :

- مولاي... لم تنته القصة - بعد -

- شهرزاد... لا أطيق سماعها... اصمتي - شهرزاد - وعودي إلى ما كنا فيه، وضمت شهر زاد شفتين حمراوين كبرعمين من ورد ، وارتسمت عليهما ابتسامتها الخالدة؛ وسكتت عن الكلام المباح قبل أن يدركها الصباح.

المؤذن الصغير(*)

صحا الفتى في غبشة الصباح كعادته على صوت والده، وما كاد ينهض عن سريره وهو يفرك عينيه حتى رأى ضوء الفجر الوليد ينفجر نهراً من لجين مذاب، ثم ينساب على صدر الليل البهيم ، وتبين بين سحب الظلام مئذنة المسجد العظيم وهي تطاول السماء بقامتها الهيفاء، وأصاخ الفتى سمعه ، فعرته قشعريرة قصيرة، وراح في غيبوبة حالمة وزاغت منه الأبصار وتعطل منه الإحساس، وفجأة هبَّ على أقدامه مذعوراً ورفع عقيرته الصغيرة منادياً... الله أكبر.. الله أكبر... وضحك الوالد ملء الصدر وصاح يقول:

- أما أنك مجنون، فهذا ما لا شك فيه..

وأعقبت زوجة والده على كلامه وهي تحاول تهدئة الطفل الرضيع:

- هذا الولد المجنون يفزع أطفالنا كلما أصبح الصباح وأمسى

*) المنهل - المجلد 6 جـ 11 ذو القعدة 1365هـ.

المساء.. ألا تسمعني أيها الرجل. ؟ أليست لهذه الحالة من نهاية. ؟ ألا تدخله المارستان؟

وأراد أن يخفف من ثورتها وأن يتفادى - في نفس الوقت - حلاً للقضية حاسماً فقال:

- الله يهديه... الله يهديه... وما بيدنا نحن إن لم يهده الله. ؟

ووقف الفتى جامداً في مكانه لا يبدي حراكاً، وجاء الوالد وهو يقول:

- هيا... هيا... يا أحمد.. فأمامنا اليوم عمل كبير في قطعة الأرض الخلفية... وطاوع الفتى أباه في صمت وسكون، وعندما انحدرا من أعلى الحوض بدآ يبحثان عن مسحاتيهما الخبيئتين تحت عرائش الكروم، فلما وجدا بغيتهما انطلقا صامتين، كأنهما لا يسمعان المرأة وهي صاخبة شائمة في ثورة وهياج.

وراح الأب يحرث كعادته فرحاً مرحاً، أما الابن فكان يكثّر الصلصال بمسحاته في صمت ووجوم، كأنما يؤود كاهله أمرٌ ويجثم على أكتافه ثقلٌ، وعلى حين غرة فاجأ الولد أباه بسؤال:

- أبي... متى ماتت أمي؟

وشلت المفاجأة الأب فكف عن الحرث وقال متمتماً كأنما يخاطب نفسه:

- لا أدري... لا أدري..

وأعاد الولد السؤال في لهجة بريئة:

- ألم تكن زوجتك؟... ألا تدري متى ماتت؟

وكان الأب قد صحا من ذهوله فقال:

- ماتت وأنت لم تزل طفلاً تحبو..

ووقف الفتى على قدميه وعاود السؤال:

- أو كانت تحبني؟

- أجل!

قال الولد وهو يحدق في أبيه:

- أكانت على شبه بأم علي؟

وكان الأب على وشك الإجابة لو لم يلمح زوجته في طريقها إليه وهي تحمل لهما طعام الإفطار فهمس قائلاً:

- كلا!.. ثم عاد إلى عمله.

وجاءت الزوجة وأراد الفتى أن يطيل إليها النظر، ليقيس على أضداد ملامحها ملامح أمه، إلا أن الشعور الكامن بالخوف سلبه الإرادة، فغض الطرف ولم يجرؤ على النظر، ولما

دعاه والده للإفطار وضع مسحاته على الأرض، وراح ملبياً إياه، فجلس القرفصاء أمام صحفة الطعام، وفجأة وقعت عيناه على قدميها المخشوشنتين، فاستنتج محدثاً نفسه، إذن فقد كانت أقدام أمي رقيقة بضة..

وتقضّى النهار وانصرم، وعاد الأب وابنه حين المغرب إلى الدار، وأخذ أحمد المسحاتين ليضعهما في مكانهما المعروف، وتقدم أبوه إلى البيت، وما كادت مهمة الفتى أن تنتهي حتى واجهته امرأة أبيه بماعون في يديها تريد أن تناوله إياه وهي تقول: - يا ولد... افتح عينيك... وخذ هذا الماعون واشتر قليلاً من اللبن الرائب، وإياك والتأخير وإلا عرضت نفسك لأصرم الجزاء، حقاً إن والدك يتوانَ في تربيتك ولا يود أن يفتح أذنيه لنصائحي، ولذلك نشأت نشأة إهمال وكسل.

وتناول أحمد الماعون في صمت وسكون، ودار على عقبيه وتلمس طريق السوق في ظلام الليل، وهو يعتقد أن الحياة ما هي إلا غضب من زوجة الأب وسكوت ورضا من جانب الأب، ووجد في نفسه رغبة ملحة في بكاء ونشيج وأحس شوقاً عظيماً إلى ذراعين حانيتين تضمانه في لهفة إلى صدر حبيب، واستسلم الفتى للأحلام فظنَّ أنه حقاً بين ذراعين رقيقتين، تداعب إحداهما شعره الأشعث وتهدهد الأخرى خصره النحيل، وآنس في نفسه رغبة إلى نوم هنيء فأغمض عينيه، وعثر في حفرة في الطريق وسقط منه الماعون، فصحا من غفوته وتناوله

في سرعة قلقة، خشية أن يكون قد رآه أحد على هذه الحال، وأغذ السير، فوصل السوق بعد قليل! وابتاع اللبن وكر عائداً، وعندما وصل باب السلام إذا به فجأة يسمع أذان العشاء، ومن تلك المئذنة الرفيعة انسابت إلى أذنيه أمواج من أنغام مسحورة، فاختلطت بلحمه ودمه، وتملكته نشوة روحية فانتقلت به - في طرفة العين - من دنيا الآلام إلى دنيا الأحلام، وراح في ذهول حلو ناعم، ومرَّ به الناس في طريقهم إلى الصلاة، وصدمه شخص سريع الخطو، فاندلق الإناء، وانتبه من غفوته فألفى اللبن وقد اختلط بالتراب، والماعون وقد انكفأ، وفي لمحة عابرة تصور ما ينتظره من عذاب وبلاء، فلم يعمد إلى البكاء والنحيب، وإنما التقط بيمينه الوعاء، وبدل من أن يسلك طريقه إلى داره نهج أخرى إلى اتجاه مضاد: ومضى في سبيله على غير هدى، ومشى طويلاً وهو لا يدري في أي بقعة من البلدة هو.

ومرت به الأشياء في ظلمات الليل كالأشباح لا يكاد يتبينها، حتى انتهى إلى دار مشعة، فتذكر أنه يعرف هذا البيت فوقف تحته لحظات، وفي الدقيقة التالية كان رجل يصيح من أعلى الدار:

- من هذا؟ من أنت أيها الولد؟

وآوى أحمد إلى دار مقابلة وعمد إلى صمت عميق فصاح الرجل كرة أخرى:

- هذا الولد يشبه أحمد... انتظر... ما جاء بك؟ قف حتى آتيك!

وتمثل أحمد زوجة أبيه وهي توثقه من قدميه إلى نخلة عتيقة في الدار وهو يستنجد بأبيه وأبوه لا يجيب، وأبصر النور منتقلاً من الرجل الهابط، فأراد أن يفر قبل أن يقع في الشرك، وأسعفته قدماه بقوة الفحول فراح يجري من حي إلى حي ومن حارة إلى حارة، حتى إذا أحس بالخور يدب إلى بدنه جلس على الأرض متربعاً يفحص قدميه الجريحتين من عثرات الطريق، وآده الألم فانخرط في بكاءٍ طويل، ولما شفى من ذلك وجده أرسل يديه تحت رأسه، حتى إذا تهيأ للنوم لمح شخصاً مقبلاً من جانب فظنه الرجل التبيع، ومرة أخرى هبَّ على قدميه الكالمتين وآلى أن لا يقف في مكان، وأن يظل ماشياً حتى نهاية الهزيع الأخير.

وعلى حين غرة وجد نفسه عند حائط في نهايته باب كبير، فالتفت يمنة ويسرة، وعرف أنه البقيع، وخطرت بباله فكرة، وسعى حثيثاً إلى الباب فألفاه مغلقاً موصداً، ودار حول السور فوجد هضبة ترتفع حتى توازي الجدار، فعمد إليها مصعداً، ولما أشرف على المقبرة كان القمر يختفي بين السحاب حيناً ويظهر حيناً، وكان السكون شاملاً، والفراغ الراعب ضارباً أطنابه، فاستشعر الخوف والفزع، وعرته قشعريرة رعب وخوف، إلا أنه تجلد وتماسك ورمى بنفسه إلى جوف المقبرة.

وهناك على ضوء القمر المطل في استحياء اهتدى إلى قبر قديم كان قد زاره مع والده في يوم من الأيام، فهرول إليه كطفل دعته أمه في دلال ولباها فاتحاً ذراعيه، وما إن وصله حتى غمره فرح غامض، فرمى الماعون من يديه وصاح - أمي - سأسمعك أذاني: وارتفع صوته الرقيق يشق سكون الليل الرهيب في شجون حزين: الله أكبر، الله أكبر.

وما كاد أن ينتصف في أذانه حتى انفلتت من فيه صيحة عالية وسقط مرتمياً على قبر أمه، وسمع حراس البقيع الأذان والصيحة، فجاءوا بمصابيحهم يسمعون، وما إن اهتدوا إليه حتى رأوا طفلاً مغمى عليه فوق قبر مهجور، وحملوه إلى الطبيب فقرر الوفاة من لدغ حية سامة.

وبعد أيام كان هناك قبر صغير بجانب القبر القديم، وصادف أن هطلت الأمطار فاختلط القبران ونبت فوقهما عشب قصير، وكانت هنالك فراشة بيضاء تنتقل بين هذا القبر وذاك.

الرأس المقطوع(*)

لا تحسبني مجنوناً أهذي، فلو استقبلت من الحوادث ما استدبرت لكنتَ حرياً أن تفعل ما فعلت.

لا تشمت - أخي - ولا تهزأ، ولا توشِّ الابتسام بالأدب المصطنع، فإن عندي لحاجة أعرف بها الهزء والسخر، مهما حاولت أن تضفي عليهما من ملامح الوقار والأدب...

أو اسخر واهزل ؛ وافتح فاك كالقبر؛ ضاحكاً مني ومن سواي، فأنا عاذرك من هذا وذاك وتبدأ الحكاية.. وما أدري أحكاية هي، أم قصة، أم شيء سواهما ؟ فما هذا بالذي يهمني أو يهم من عدانا...

أجل .. إنها لتبدأ مذ هبطتُ البلدة يوم جمعة، فقد ابتعتُ ثمار بستان في (العوالي)، وكان البستان لا يضم سواي وأجير يعاونني، وكنا قد استبقينا الأهل بالمدينة، فما كان بالبستان إلا كوخ أو عريش تبيت تحته الحمير وتقيل،

*) المنهل - المجلد 7 جـ 11 ذو القعدة، ذو الحجة 1366هـ.

ونبيت على سطحه أنا والأجير، فما كان على أسرتي إلا أن ترضى بالمقدور، وأن تكل أمرها إلى الله! وأن تتخلف بالمدينة فنحرم قربها والأنس بها.

صفحاً - أخي - فقد استطردت بي الحوادث أو استطردت أنا بها، وحدنا عن صلب الحكاية...

حسناً... ما كنت أقول؟... لحاها الله من ذاكرة خوانة... أجل... أجل... وفجأة أبصرته يتدحرج... الرأس المقطوع - كما قلت - أواه ... أستميحك العذر... إن العتبَ - كما يقولون... على الذاكرة وإنها وربك الناسية..

ثم ... أجل ... وكان هذا الرأس لرجل قتل آخر، فحكم عليه - قصاصاً - بالقتل... حسناً... وما علاقتي بهذا الأمر؟

لقد ذهبت في فضول الذاهبين لأرى... كيف يُجذ الرأس؟

وما كاد السيف الصادي يلمس لسانه دم الرجل... حتى أقبل عليّ الرأس... متدحرجاً... ولم تبق لي المفاجأة مجالا للفرار... فصمدت - في موضعي - كالرجل المسلسل في حومة القتال تُضفى عليه أوصاف الشجاعة والأيد وهي ليست منه في شيء أو هو ليس منها في أشياء...

ولما توقف الرأس كانت عيناه في عيني، ولحيته معفرة

بالدم والطين، ولن أصدق - ولو حملتَ أغلظ الأيمان - أنك حقاً أدركت شعوري وإحساسي فلقد قفزت في موضعي في خفة الحمل، وأرسلتها صيحة مدوية، فانتظمت الضحكات في رتابة الموسيقى، وذُبتُ بين بُرْدَيّ - إذا كانت لي أبراد - خجلاً وحياء ويممت سمْت الدار، لا ألتفت يمنة ولا يسرة...

وقضيت النهار مخفيا عن أهلي حادث الظهر ، وتناولت معهم العشاء، وقبَّلت ابنتي مودِّعا واعتزمت العودة إلى البستان وقد أمسيت - ولله الحمد - خلِيّ البال قرير النفس، ساكن الصدر، ونفذت من باب (العوالي) واحتوتني الظلمة، وكانت - وقتئذٍ - معتكرة...

وصدقني إنني لستُ بالذي ترتعد أوصاله ومفاصله، إذا ما جن الليل وهو فريد في خلاء... وصدقني إنني يُشار إليّ بالبنان وبغيره إذا ما ذكر الشجعان والأشاوس الأبطال... فمن العيب أن يلون الإنسان مفاخره ... وأن يبدئ ويعيد فيها ... إذا ما أطل الشك... مثلاً - من عينيك... ولا تبعد كثيراً فقد مررت بهذا الطريق - ليلاً - عشرات المرات، ولم يطرف لي خلالها جفن، فبم تعلل هذا...؟

أجل... لقد كان شعوري - والظلمة حولي - كمن نزل البحر مستحماً أول مرة، في حياته وعلمه بالسباحة لا يجاوز علمي أو علمك..

حسناً، لنعد إلى ظلامنا الذي احتوانا، ولا أدري لم

أسرعت قدماي، وتصلبت أطرافي شأن من يتحفز لأمر ما... ولا أدري لمَ كانت الخرائب تفتح أفواها كالسعالي والغيلان.؟ ولست أدري لم كانت كل قصفة من جريد النخل، طبولاً تقرعها عتاة العفاريت، وكل نسمة من هواء، ضحكات وهمسات من أفراح الجن؟ وصعدت دمائي تتدفق إلى دماغي، وكنت كسائمة في غابة أقبل عليها وحش كاسر منتضياً أنيابه، فركزت دفاعها في قرنيها لتحمي البيضة والذمار، وكنت قد سمعت أن الجن يفزعها الحديد، فسللتُ الخنجر من غمده - وكنت أحمله أبداً معي - وأطبقت يدي على مقبضه حتى خشيت أن يتهشم في كفي، وتهيأت للقراع والطعان، إذا ما حزب الخطب وادلهم..

وثقل خطوي، وصار مشيي مهلا وئيداً، وبدأت ألتفت - حذراً - يميني وشمالي، وكأن العفاريت علي تتآمر، ويلتئم شملها ويتفرق، وكأنهم يريدون أن يكون هجومهم مع الرياح الأربع.. وداخلني هلع وفزع، وأقبلت الدماء تمد القدمين، فقد آن أوان الهرب والفرار، وهممت بهما، لولا أنني رأيت على بعد ذراعين مني عينين تألقان في حندس الليل الحالك، وتشعان بريقاً أزرق مرعباً، فشلت قدماي لحظات تبنيت فيها لحية مخضبة بالدم والطين فعض الرعب قلبي... ويلاه...

إنه الرأس المقطوع.. لا ريب في ذلك ولا شك؛ وهجمت عليه - دون شعوري - بخنجري، وأهويته بين عينيه المشعتين... ولكنني - واسفاه - ما طعنت إلا الهواء، لأنه

انزاح عن هجمتي كالبرق الخاطف ورحت مهوياً على رأسي، وكأن مارداً جباراً انتزع الخنجر من يدي، ومن يمن طالعي أن لم يصب من جسمي مقتلاً، وما كدت أنهض حتى ملأ الفضاء حولي ضحك كالعويل.. وجن جنوني، وأذنت لساقي أن تسابقا الرياح سبقاً.. وضحكات السخر ترن في أذني آيبة ذاهبة..

ووصلت البستان، مبهور النفس لاهثاً وصدري يعلو ويهبط كالمنفاخ في يد الحداد، وناديت الأجير، فلم يسمع وبحثت عنه ملهوفاً فلم أجده، واستعذت بالله من شرور المردة والشياطين ورقيت سطح الحظيرة، وقد تطامن - قليلاً - روعي وهدأ، وانحدرتُ إلى القلة، أبحث عن ماء يبرد الغلة ويروي العطش، وبعد لأي وجدتها ولكن من دون كأس، فتحسست بيدي هنا وهناك، فأخفقت في العثور عليها، ومن عطشى تناولت بالقلة في يدي، لأشرب من فمها... وما كدت أهوى بفمي الصادي عليها حتى ألفيت شيئاً كالشعر يعلق بالحلق واللسان فقربته إلى عيني... وإذا به الرأس المقطوع.. ودمه اللزج يسيل منه على ذراعي ويدي... رباه... ورميته بأقصى ما أملك، من قوة، وانقلبت أنا على قفاي... ومفاصلي ترتعد، وأسناني تصطك، وكأن بي الحمى، وبحثت عن شيء أخفي تحته جسدي... فأطبقت أصابعي على البساط المفروش، وسحبته سحباً، فهوت اللحف والمتكآت - في ضجة - إلى الأرض وأسبلتْه علي ، حتى جعلته لي جنّة ولمت نفسي

تحته كالقنفذ، ولازالت أصوات المرح الساخر تنفذ إلى أعماقي، وتداورتُ في نفسي أموراً، ورأيت في موضعي المكشوف نهزة مني للعفاريت فأسرعت بالانحدار إلى الحظيرة، وغلقت بابها بيد متصلبة ثم ارتميت عليه خيفة أن يفتح... ولا أدري، كم ساعة بددتها في خندقي، حتى قدم الأجير وهو يبحث عني ويرفع صوته بالدعاء، وأشعل عود الثقاب، فلم يجد البساط ولا المساند ولا المتكآت.. فحدس أن لصاً سطا على البستان، وأن صراعا بيني وبينه نشب فصاح مستنجداً:

- الحرامي... الحرامي... ألحقوا الحرامي...

سمعتُ الجيرة وقد أتوا من كل صوب منجدين، وفي أيديهم العصي والقسي وهم يلغطون.

- أين اللص؟... أين اللص؟...

فتلقاهم الأجير بالنبأ، وخف بعضهم إلى الحظيرة؛ ليطمئنوا على وجود الحمير، وقد تصببَ العرق بارداً من جبيني، لا خوفاً وإنما خجلا وحياء، ونهشتني الحيرة، فكيف أعلل وجودي بين البهم والحمير، ولكن ما أسرع ما أُلهمت حيلة... فتصنعت الرعشة والرعدة، فلما أضاءوا وجدوني ملفوفاً - كالتمر - في مجلاد... فقالوا، والرعشة في وجوههم:

- ما بك؟...

- هه ... هه ... الحـ... مّـ... ى ... النفّ... اضـ... ـة!...

المصباح السحري(*)

كان طفلاً في الرابعة، كالوردة ابتسمت في أكمامها، وكأن بعينيه أثارة من قُبَل الحور، كان ينشد ويبكي، ودمعتان تسبحان في عينيه كالجمان، كان لا يفتأ يقول، وكأنه يلتذ بما يقول:

- أمي ... أبي

واطّاول السمكري الكهل بعنقه، باحثاً عن مصدر البكاء، وكانت الحياة في شبابه قد أرضعته سعادة لم يشب صفوها كدر ولا قذر، كانت زوجته لينة الأطراف موطأة الأكناف، لدنة العود، نقية طاهرة، كان مأواه في قلبها، ومأواها في قلبه، كان الحب هو الذي ضمهما جسداً وروحاً، ومن نبعه الخالد كانا يصطبحان ويغتبقان، كانا أغنية الشباب والمرح والهناءة في فم الزمان. كانا معصوبي العينين والآذان، لأن الحب أعمى وأصم، ثم شاء الله أن يجعل لحياتهما معنى، فوهبهما ولداً، فنبت حبهما فيه، وتفرع في عينيه، فلما كانت

*) المنهل - المجلد 8 جـ 7 - 1367هـ.

هي تحدق في عينيه النجلاوين، تميل عليه وتقبله في لهفة العاشق الواله وتقول:

- لكأني أقبلكَ..

فيقتطف هو من ثغره الباسم المورد قبلة ويقول:

- لكأني أقبلكِ..

وكان الصفيح في يديه الصناعتين مطواعاً ذلولاً، كأنه العجينة اللدنة اللينة، يبدع منها ما يحب ويهوى، وكانت الأباريق والمصابيح ومغارف المياه، تنسل من بين يديه وعليها من مهارته شارات وسمات...

ومضت أيام...

فإذا الدهر يقلب صفحة أخرى من حياته، وإذا شجرة هواه تذوي وتذبل، وإذا مرض عضال، ينشب أظفاره في الزوج فيعز البرء والشفاء، وإذا هي تموت وعمرها عمر الزهور، وتعانقه قبل الوفاة، فتتقطع الكلمات على شفتيها ولا تقول إلا كلمة:

- ولدي...

فتطفر الدموع من عينيها أو يشرقان بالكلام، فلا يكاد ينطقان... وتمضي الأيام تتلوها أيام...

وإذا البرعم الصغير الذي خلفته الوردة الكبيرة يأبى إلا اللحاق بأصله، والعودة إلى الحضن العطش الصادي... قبل أن

تأخذ أعضاؤه الصغيرة مستواها وقبل أن يذوق طعم الحياة... بفمه... لا بفم سواه...

وتمضي لا ليلة ولا ليلتان ولا يوم ولا يومان، إنما عشرون سنة كاملة مترعة بالإقبال والإدبار، والآلام والآمال، والأفراح والأتراح، ولكن لدى من؟ لدى أولئك الذين تجرعهم الجياة، كل صباح ومساء، كأسي الشقوة والهناء. أما سنوه العشرون، فليس فيها ما في حيوات الناس من سعادة وشقاء... لماذا الناس ينعمون بالحياة حيناً، ويشقون بها آخر...

لقد علم ببصيرته النافذة أن التملك والسيطرة هما داء الإنسان العياء، منذ أن تحضر وتمدن، وتشعبت به دروب الحياة شتى الشعب، إذن فلن يملك ولن يسيطر، رضي من عيشه بأضيق حال، وقنع من حياته بأهون جهد، وساءل نفسه في سذاجة الأطفال، أوليس غرضي من الحياة، أن أكون هادئ البال، قرير النفس، مطمئن الخاطر، فلم أذهب النفس شعاعاً، وأجور عليها في كل درب وشعب، وأعكر صفوي واطمئناني لا لشيء سوى البحث عن الصفو والاطمئنان؟...

إنه - مع ذلك - لم يوصد باب دكانه، لكنه لم يلازمه إلا ساعة في ليل أو نهار، وأمست مصابيحه ومغارفه، لا يمتاز عن سواها إلا أن صاحبها يماطل الزبائن ويدافعهم شهراً أو شهرين بدل يوم أو يومين، فإذا صنعت كان لزاماً على مشتريها أن يعاود الطلب إثر الطلب، لسد خرق فيها أو لرأب صدع

بهـا... أما هو فما يهمه شتم شاتم ولو كان هجراً، ولا سب غاضب ولو كان ناراً حامية، وكأنه معتصم بشعب في رأس جبل، والناس في سفحه يكرون ويفرون يقبلون ويدبرون، وما هم في عينه - إلا دمى تحركها أيدي من وراء ستار، وخلت نفسه من هموم الدنيا، حتى أمست عدم المبالاة، ميسمه وشارته، فلو تصدعت دار بجانبه، ولم تصبه ما عبأ بها قط، ولو مادت الأرض وانخسفت بين أقدامه ولم يهو في شعبها المصدع لما أحس لها صوتاً ولا ركزاً، ولكنه لم يكن - يوما - بليد الحس و الشعور؛ لما يصادف في نفسه هوى عتيقا أو جديداً، فما كاد يسمع صوت الطفل وهو يشرق بالدموع، حتى ترك جذاذة من صفيح كان يعبث بها يومين ليجعلها في طرف من مصباح، وانحدر من دكانه وهو يخافت سعالاً مزمناً، وضم قميصه على صدره، يتفادى نسمات الأصيل، وهو في قرّ الشتاء، وأقبل على الطفل، وحدق في وجهه تحديقاً، ثم مال عليه في حنان ومودة وسأله:

- من أنت يا بني؟

فما فاز منه بغير البكاء المرجَّع، فأعاد عليه السؤال:

- من أبوك؟

فلم يسمع من الطفل إلا النشيج المتواصل، فحنا عليه كالمرضع وأمسكه من ذراعيه في رفق، وأعلاه حتى وضعه على

مصطبة الدكان، وآنس الطفل من تودده ما جعله يصمت من صنع الرجل الغريب، وكأنه في داره، وفي حضن أمه وأبيه، واستخف الشيخ مرح غامر، وكأنما استطاع هذا، بيديه الناعمتين أن ينقله من خريف حياته إلى ربيع العمر وزمان الصبا والشباب، وأسرع إلى أقرب بقال، ليبتاع للطفل ما يقدر على قضمه من النقل والحلوى، ورآه الناس فتساءلوا:

- ترى... ما يفعل السمكري الكهل بهذه الحلوى والنقل؟!

وما كاد يصل دكانه، حتى ألفى جمعاً منهم عند دكانه، فاستثقل ظلهم، وأراد أن يجبههم بقارص القول، لينصرفوا، ثم تذكر أنه عليه أن يسألهم عن الطفل التائه، فما شفوا نفسه بالجواب، فقال لنفسه:

- سأحتفظ بالطفل، أو نجد أباه.

فأحاط به القوم وسألوه:

- لا نراك إلا منصرفاً عن الناس صغارهم وكبارهم، فما بالك - اليوم - معنياً بهذا الطفل؟...

فقال وهو يغالب السعال في صدره:

- لأنني أجد فيه مشابه من ابني كثيرة...

وكان الظلام قد التصق بالجدر والزوايا والأركان في سوقه، فاحتضن الطفل بذراعيه، وقد تعرت عروق يده، فأوقفه

على الأرض، وأغلق دكانه، أما الطفل فكان لاهياً بالحلوى يمصها ويستحليها...

وحين دلف به إلى داره بحث للمرة الأولى عن مصباح غاز، كان قد صنعه حين أراد أن يبني بزوجه ، فلما أضاءه فزعت الخفافيش وهلعت، فقد أعمى الضوء عيونها المغطشة، وعجبت من النور بعد الظلمة، ومن الصحة بعد الأمن والقرار، وهوى بعضها فوق الصفيح المنتثر، فرنَّ إرنان الصدى في كهفٍ مهجور، ووجل الطفل وجلاً شديداً، وعمد إلى البكاء والنحيب، فحمله السمكري على عاتقه، ومازال يدور به جيئةً وذهاباً، حتى أغفى الطفل ونام، وشكا الرجل من ضيق تنفسه، وكبت السعال في صدره، فبرك على الأرض ثم استوى عليها وأراح رأس الطفل في حجره، والسعال يوشك أن يمزق رئته تمزيقاً، لكنه لا يتململ ولا يتوجع خيفة أن يصحو الطفل، فلا يسكت بعد البكاء... وكانت ذبالة المصباح العتيق، تتراقَصُ تُراقُص الظلال على الجدار المقابل، وكان الصفيح يومض بالأشعة الموهنة التي تصافحه، فكأنها حصى تألق في غدير مظلم صامت.

وطال به مقامه وهو على هذا الحال... ثم أخذته سنة من النوم، فعاد به القهقري، خمساً وعشرين عاما إلى الوراء، وكان في الشهر الأول من زواجه، كان في حديقة وارفة الظلال، ملتفة الأغصان تنبثق منها جذوع النخيل، حتى إذا تسامقت

صعداً في السماء، بسطت جريدها لتحمي صغار الكروم والرمان من عتو الأشعة المتضرمة؛ وكان الجدول يقبل الأرض التي أنبتت أزهار الربيع ففاح أريجها الأرج، وتضوع عطرها الفواح، وكان الطير يلقط الحب من سنابل العشب النامي، حين دخل الحديقة فرآها جالسة إلى الماء، وهي تغرفه بيدها غرفاً، ثم تفرج أصابعها الخمرية، فينحدر الماء منزلقاً منها إلى الجداول ثانية، وتعلق بيدها قطرات كدموع الزهر في الصباح، ومشى على رؤوس الأصابع، كما يفعل القط حينما يرصد طيراً، فلما أحست به نهدت من الجدول، وفرت تستجير بالياسمين ، وانطلق وراءها، حتى أدركها، فرامت أن تنفد من ثغرة في عريش الياسمين، لكنه نالها في ذراعيه، وحملها كما تحمل الأم طفلها في مودة وحنان ، وشعر أن أصابعه، إنما تنال من جسمها البض الريّان فخفف القبض عليها، وانسدل شعرها الحفال هادياً، فكادت الأرض تقبل أطرافه وارتوى الهواء من ريا عطره منتشياً، والزهر أطل معجباً حين رأى خدودها تتوقد خجلاً وحياء...

وصحا السمكري من نومه على دق بالباب وطرق، وجلبة وضوضاء، فرأى أن ما رآه كان حلم الماضي، وأمل الصبا والشباب، وأن صفيحه عن يمينه وشماله، وأن الطفل على ركبته مازال مغفياً وعلت الضجة كرة أخرى، وفهم السمكري أن أبا الطفل قد اهتدى إلى مأواه...

واعتزم بادئ الأمر، على أن لا يرد على أب الطفل إذا طالب بابنه، ثم عنَّ له أن يجيب، فأعاد الطفل إلى عاتقه ومضى به نحو الباب يفتحه، فدخل الرجل مع عمدة الحي وشكراه على حسن صنيعه بالطفل التائه..

أما السمكري فلم تخرق أذنيه كلمة مما قالاه، فقد كان قلبه يتمزق مرارة وأسفاً على الهوى الضائع، وما كاد الرجلان يتهيآن للانصراف، حتى قبض على ذراع العمدة وقال -وكانت تقام في بلاده مباراة سنوية، يعرض فيها كل ذي مهنة فنه -:

اسمع - يا عمدة - سأشترك في مباراة المصابيح غداً...

وانفتل الرجل عائداً، وقد أخذه العجب:

- أأنت؟.. أتعني ما تقول؟

- أجل.

- أأنت الذي اعتزلت الناس عشرين عاماً؟

- دعنا عن هذا... فلي شروط أخرى...

- حسناً... وما هي؟

- ستأتيني مساء الغد، أوفاهم أنت؟ مساء الغد.. وستجد الدار مظلمة، ماعدا مصباحاً يضئ، ستحمله حينئذ بيديك، ولن تحاول في حال من الأحوال فتحه، أو سامعٌ أنت؟ - ستحمله إلى دارك وستضعه مع مصابيح الناس في حجرة

دارك لا نور فيها ولا ضياء، فإذا عتم الليل فأدخل عليها من رهطك ممن تحكمون في المباراة.. أفهمتني؟..

- لست أفهم شيئاً...

- ستفهم كل شئ في حينه.

ثم أضاف قائلاً:

- والآن أرجو أن تنصرف.

- فخرج الرجلان ونظراتهما تقولان:

- مسكين... هذا الرجل... لقد مسه الخبل...

وبلغ العمدة في صباح اليوم التالي أن السمكري قد وجد مقتولاً في داره، وقد اكتشف أمره لبّان كان قد اعتاد أن يحمل إليه إفطاره، لقد دعاه - كعادته - في صباح كل يوم، فلم يسمع للرجل في الدار نأمة ولا حركة، فارتاب في أمره، واقتحم الباب عنوة، فلما رأى الرجل مجدلاً، صاح في هلع، واجتمع الجيرة، فرأوا مدية قد مزقت صدره تمزيقاً، وحزن الناس واغتموا لقتل الرجل، وآلوا ليجدنَّ قاتله ولكن حماسهم ما عتم أن فتر، فأودعوه قبره صامتين، وترحموا عليه كثيراً... وكثيراً...

وهزَّ قلب العمدة جلال الموت، ورأى أن ينفذ وصية الميت، فقدم الدار ليلاً، فألفى الغرفة وقد تبعثر فيها الصفيح يميناً

وشمالاً، وأحس كأنما الميت يشرف عليه من عليائه، ونظر إلى المصباح، فألفاه ينفث نوراً، وانياً هادئاً، نوراً - خيل إليه - أنه أصفى شعاعاً من الأنوار، وأنه ينبع من مجهول مجهول...

وأنه ينطوي على سر عميق، شعر بكل ذلك، فاعتزم أن يعود على أعقابه راجعاً، لكنه ما فتئ أن عزا خوفه ورهبته إلى الدم الذي تلح رائحته الخفية في الدخول إلى أنفه، وخشى أن يوسم بالجبن والرعدة، وهو الذي ذهب في الشجاعة وثبات الجأش مثلاً... فاقترب من المصباح، وكان كأنه يقطر لهباً ودماً، لا شعاعاً ونوراً وأحس حين لمس المصباح أنه إنما يصافح الميت يداً... يداً خضّبت بالدم المسفوك، وكأن الصفيح تحت قدميه يقعقع ضاحكاً هازئاً... ولم تطق أعصاب الرجل هذا الصراع الخفي ، فانطلق هارباً وهو يصيح:

- ما هذا مصباح... ما هذا مصباح...

وأرسل من ينوب عنه في حمل المصباح إلى داره، وخصصوا لمصابيح المباراة غرفة أوصدوا نوافذها إيصاداً محكماً، ولم يبح العمدة لأحد بما سمع ورأى، خيفة أن ينسب إليه ما لا يود أن يكون عليه من الشيم والصفات...

وحين أنبأ العمدة كبار القوم من المحكمين بشرائط السمكري المغتال، هزوا رؤوسهم قائلين:

- ما بال سمكري معتوه يغير ما ألفناه في أيامنا الخاليات.

فأجابهم العمدة:

- إن الرجل قد قضى، وما علينا لو حققنا أمنيته... لقد كان رجلاً من خير الرجال ومات مقتولاً، ولم نقف لقاتله أثراً، فلو نفذنا وصيته لأكرمناه.. وبعد أخذ ورد، وافق المحكمون أن تكون المباراة وفق ما رغب فيه القتيل... وأقبل الرجال الأربعة في فحمة الليل الحالك على غرفة المباراة، وكأنهم قادمون على قبر زاخر بالأشباح، وأحسوا كأنما ابتعدوا عن دنيا الأحياء، وإن كان جمعهم يشجعهم على اقتحام المجاهيل، وكانت عيونهم شاخصة، وتتلاقى على الباب الموصود نظراتهم ،فلما وقفوا قبالته، احتاروا من يفتح الباب ، وأخرج العمدة يده، ومدها متمهلاً ودفع الباب...

ويالعجب ما رأوا...

رأوا الحجرة مضاءة كالنهار، وكأن المصابيح تتدفق نوراً ونوراً... وأقبلوا على المصابيح ينقذونها واحداً واحداً، فألفوها مظلمة عمياء، ماعدا مصباح السمكري لقد كان يشع كالقمر، هادئاً وانياً زاخراً بالرؤى والأحلام، شعاع لا يغطش البصر ولا يغشيه ، وإنما ينحدر إلى العين سلسلاً ، وعافية وسلاماً وأمناً وهدوءاً، وقراراً، وعجبوا كيف لم ينفد زيته منذ أمس، وداروا حوله مستطلعين يريدون أن يعثروا له على فتحة أو باب، فوجدوه قطعة واحدة لا تتجزأ... وازدادت حيرتهم ودهشتهم،

وخشوا أن يلمسوه بأيديهم، فتركوه وشأنه، وانصرفوا وقد أوصدوا الباب...

وأصبحت البلدة لا تتحدث إلا بأمر المصباح السحري، الذي حير العقول وأذهل الألباب بنور لا ينفد...

وأعادوا الكرة في الليلة التالية ، فألفوه كعهدهم به... مضيئاً يسبي ويسحر.. وسمع بأمره القاصي والداني، وأقبل عليه الشيب والشبان، يريدون أن يرووا ظمأهم من سحر المصباح، وحزنوا أشد الحزن على صانعه السمكري...

ليته لم يمت، ليرى مجده خافقاً على هامة الزمن..

وبعد أيام خرج المصباح للناس، ليروا أعجوبة تعنوا لها الأعناق، وتطأطئ لها القامات، أعجوبة من كان يظن أنها تتم على يد السمكري المخبول.. أنه - والنهار صحو ضحيان - ينفث نوراً كالعلق إحمراراً، ووضعوه على منصبة عالية، والناس حولها يدهشون ويعجبون ، ولا ينقضي لهم - أبد الدهر - عجب ودهش.

ورأى عقلاء القوم انصراف العامة عن أعمالها إلى هذا الحدث الطارئ والذي - لا ريب - يعود على البلاد بخسران مبين، فأرادوا أن يصرفوهم عن المصباح، ولكن ما جدوى السدود عند انحدار النهر الطامي؟ وأنَّى للعقلاء أو السخفاء أن يصرفوا الناس عن شيءٍ مازال لهيب شوقه مستعراً في قلوبهم؟

وقال شيخٌ حكيم وهو يهز لمته البيضاء:

- أتسمعون - أيها الرفاق - لن تصرفوا الناس عن هذا المصباح، حتى تبددوا سره وسحره، ومادام المصباح يشع، ولا يعلم منا أحد، بذلك الشيء الذي فيه يتلألأ، فلا يخطرن ببالكم، أنكم بالغون من الناس أمراً... تقدموا إلى المصباح، واجعلوا فيه شعباً أو صدعاً، فتتدفق الأنظار إلى داخله، وترى ذلك الشيء المضيء... وحين يعرف سوف يقولون - وهم يلوون وجوهم شأن من غش في شيء -: أهذا كل ما في الأمر... تبا له... ما أوهنه من مصباح خلب الألباب والعقول، يا لضيعة الأوقات..!

وفهم العقلاء أن الرجل مصيب فيما يقوله، فأقبلوا على المصباح، ودعوا السماكرة وطلبوا منهم أن يفتحوه عنوة، ففعلوا، وما كادوا يفعلون، حتى ارتفعت سحب من نور، تجيش كالموج الحبيس، وأخذ الناس رعب وهول ، فتأخروا... ولكن ما عتم أن تبدد عجاج الضوء، وبدا للعيون في المصباح شئ كالتفاحة الضامرة، يألق ألقاً يخطف الأبصار والألباب، ووجم الناس لحظات، شعروا فيها كأنهم يبتعدون عن دنياهم ويلجون عالماً غريباً...

وصاح رجل:

- ما هذا إلا حجرٌ كريم...

فسئل كل جوهري عنه! فهزوا رؤوسهم منكرين:

- ما هو بحجر!..

وأصلح رجلٌ منظرته على عينيه، وكان شاباً ممتلئ الجسم في الأربعين من عمره، وأقبل عليه يتفحصه ويدرسه، ثم نهد من موضعه وقال واثقاً مؤكداً:

- إنه مزيج كيميائي غريب لا يفهمه إلا الراسخون في العلم..

فأجابه الشيخ الحميم:

- لم يكن السمكري المتوفى كيميائياً يوماً ما، لم يكن ليعرف إلا مزيج الصفيح بالصفيح.

فقال الرجل نفسه معانداً:

- ولكنني واثق مما أقول والعلم لا يخطئ...

فهمس الحكيم قائلاً ليحسم الخلاف :

- نعم... كل ما في الدنيا مزيج كيمياوي غريب...

وكان رجل من عرض الناس يقف بالقرب من المصباح، وعلى كتفه ابنه الذي آلى أن يحمله على ظهره - أبداً - فقد تاه قبل أيام ولولم يعثر عليه السمكري المقتول لأرق أباه في البحث عنه، ليله ونهاره...

ونظر الطفل إلى الشئ المعلق وقال:

- هذا قلب... إنه شبيه ذلك الذي شويناه... قبل أيام،

ولمعت في ذهن الرجل فكرة، وأسرع إلى العمدة، يسأله كيف قتل الرجل؟ وكيف وجده لما دخل عليه؟ فأنبأه أنه ألفاه مطعونا في صدره وكأن قلبه انتزع انتزاعاً...

- لقد فهمت...

الفتى الملثم(*)

كان الوقت أصيلاً، والشمس قد انحدرت إلى المغيب، وأنا في نظارة داري ألتهم الشفق الدامي كخد عذراء رعبوب، وأحسوه حسواً بعيني وقلبي، لا بفمي ولساني، وكان السكون جاثماً حولي والنخلة السامقة الصامتة مطرقة، لا تلهو عن العبادة بحركة وهمهمة الطيور العائدة إلى أوكارها وقد طاردها الليل والغلس تذكر حيناً وتهمد حيناً، ولكنها ما تزيد السكون إلا هولاً ورهبة، وعند سفح الجبل العالي الذُّرىَ إبلٌ آئبة إلى أعطانها، وإن قوادمها وأخلافها لترقص هوناً على نغم الكون الهادئ الحزين، وما عتمت أن كدرت ضوضاء جلال هذا الصمت، فاحتدم الغيظ بصدري، ولو أني كنت أعلم أنها آتية لا ريب فيها، ولقد تمثل لي المنظر، وإنني لأعرفه جيداً.. لا أخطئ فيه أبداً فلقد رأيته مئات المرات واستوعبته استيعاباً، ولكن أما كان أحرى ألاَّ يعكر علي صفوي اليوم، إن هؤلاء الصبية الأشرار المناكيد لا يبرحون هذا الشقي البائس

*) المنهل - المجلد 9 جـ 1 = 1368هـ.

ولا يفتأون يركضون خلفه، ويرجمونه بالحجارة منذ أن تسفر الشمس إلى أن تغيب، منذ أن يلفظ البائس كوخه إلى أن يؤوب، إنه لشيخ هِمٌّ مشلول الذراع، بدوي سكن هذا البلد منذ سنين لا يعلم عددها إلا الله، ولكأن هذا الشيخ ليستعذب هذا العذاب ويستمرئ هذا المر، ويستحلي هذا البلاء، فهو لا يشكوهم إلى أحد أبداً ولو سقط لعينه صريعاً مضرجاً بالدماء...

إن عصاه التي يتوكأ عليها لو أهوى بها على هامة صبي من الصبيان لشجها وهم يقربونه وينخسونه بأصابعهم، أو بما في أيديهم من أعواد، وهو يعلو بعصاه على رؤوسهم، ولم يؤثر عنه أبداً أنه أراق دم أحدهم يوماً... وإن هذا ليجعل العامة أمعن في إيذائه وأقل احتراساً من بطشه وتنكيله، ولو شاء لأفدح بهم الغرم والضرر وأذاقهم من شر عصاه ما يخافون.. وطاف بنفسي أن أوقف الصبية عند حدهم، فانحدرت إليهم من داري كالسيل الطامي، وما إن أبصروني هابطاً حتى ولّوا مدبرين، ولكأن الأرض انشقت فابتلعتهم، ولم يخلفوا وراءهم سوى صيحات اختلط ذعرها بخبثها، وانعطفت إلى المسكين الذي آوى إلى ركن في جدار متصدع ثم عاد فأقعى على باب كنّه - وبيده عصاه - لينظر ما يفعل بالغلمة وما يفعلون، فلما رآني مقبلاً عليه أعلى بحكم العزيزة عصاه في وجهي فقلت له:

- لا تخف فإنما أنا صديق..

ولكأن كلمة الصديق لم يكن لها عنده مدلول، فغاب في الحُجَر، وأوصد بابه الخشبي فعدت قانطاً من أمره يائساً... وشملتني لجة الزمن فانصرف ذهني عن الرجل، حتى كان يوم بعد أسبوعين، أمطرت فيه السماء مطراً غزيراً واستنقعت الأزقة والأحياء والحارات، وكنت في سطح داري أرأب صدوعاً بالجير والطين وإذا بصوت أشبه بانحدار حجر في بئر ذات عمق وغور، يخرق سمعي فنهدت من مجلسي وأسرعت إلى الكوة رافعاً رأسي فيها، أتلفّتُ أية دار انهارت، وانحط بصري على ركن مشلول وقد نفذ قطرات المطر إلى أساسه فتصدع، ورأيت إحدى قدميه وقد برزت من خلال الجدار المنهار، ولم تطرق مسمعي أنةُ أو شكوى أو استغاثة، فظننت أن المسكين قضى، وانحدرتُ أطوي الدرج: ثلاث ثلاث، حتى إذا وصلت الحُجَر أهويت على الحجارة أرفعها، وأوسع بيدي خرقاً أخرج منه جثة الرجل إن مات، أو لأسعفه إن كان به ذماء من حياة، وماعتمت ساعداي أن وصلتا إلى الرجل، فسحبته على مهل وأناة، وحملته بين ساعدي، واستخبرته بعيني، فألفيت صدره في شهيق وزفير، وإن كانت أنفاسه محشرجة ، فأسرعت به إلى داري فأسجيته على حشية، وأوسدت رأسه على مخدة، ورأيت لونه وقد حال وكمد فأيقنت أنه - لا محالة - هالك، وقمت لأدعو له الطبيب فإذا بيده السليمة المعروقة قد قبضت رسغي كالكلاّبة، وجاهد لفتح إحدى عينيه وهو يقول:

- أين أنت ذاهب؟

فملت عليه وقلت:

- لأدعو لك الطبيب!

قال وقد فتح عينيه في إعياء:

- إن شئت بِرِّي فاجلس، فإنني ميت، ولن ينفعني الطبيب في قَدَر..

فتملكني العجب، فقد كنت أحسبه مدخولاً في عقله، وإذا كلامه كأحسن ما يتكلم العاقلون، ولكأنه قرأ حيرتي على قسمات وجهي فقال:

- لا تعجب فإنها المرة الأولى التي أكلم فيها إنسانا من ثلاثين عاما أو أكثر، ولولا أنها الساعات الأخيرة من حياتي ما كلمتك أبداً... فاجلس ولا تملّ، فإني لقاصٌ عليك حياتي! فأجبته:

- إذا كنت تؤثر أن تقص عليَّ حياتك على أن أحضر لك الطبيب فأنا عندما تحب وترضى... فبرقت عيناه وهو يستجر أحلى ذكريات شبابه ثم أنشأ يقول:

- كنت حينذاك غض الصبا ، فتى يافعالم أبلغ العشرين بعد، وكان أبي كهلاً يربي على الأربعين، وكنت لا أفارقه في روحاته وغدواته، وكان كثير الأسفار لأنها كانت مهنته التي منها يقتات، كان دليلاً يخوض الفدافد والمفاوز، كان عالماً

بالصحراء نجودها ووهادها غدرانها وعيونها، وكان يعرف المصدر والمورد، وكنت لم أزل طفلاً، وهو يصحبني لترسخ مناظرها في عيني وفي قلبي فأخلفه إذا شاخ وكبر..

وفي ذات سنة أقبل علينا رجلان من قبل الشام عارضين على أبي مالاً كثيراً إن استطاع أن يسلك بهما أقرب السبل إلى موضع عيناه، فقبل أبي ما قدما له من مال وفير ووعدهما ليصلنَّ بهما إلى حيث يشاءان، وأحضرنا للرجلين ركوبتين من أعتق الإبل وامتطيا ركائبنا في أصيل ذلك اليوم، وقد كان أحد الرجلين على عتبة الأربعين إن صدق حدسي، ربعة مفتول العضل مرخياً لحيته، والآخر فتى ممشوق القد في مثل سني إلا أنه ملثم ... وأخاله ابن الرجل الملتحي... وقد كان أبي والرجل ذو اللحية في الطليعة، أردفاهما أنا وابن الرجل... ومضينا... ولحظتُ أن خدني نزر الكلام، بل لا يتكلم أبداً، إلا أن لثامه الصاعد على أنفه يفصح عن حسنه، فقربت من ناقته ناقتي وقلت:

- من أين أنت - يا أخانا -؟

فأجاب بصوت ناعم النبرات:

- أنا من الشام، إلا أنني مأخوذ بجمال الصحراء، فلا أريد أن أفسد على نفسي المشاهدة بالكلام، فرددت كلماته دهشاً:

- جمال الصحراء! وماذا في الرمال من جمال؟...

وأثار غموض صاحبي كامن فضولي، فاعتزمت لأنظرنَّ وجهه الصبيح وهو يأكل فسيضع لثامه وهو راغم، ومضينا ليلتنا لا نقف ولا نتريث، وقد كل ذهني من التفكير في أمر صاحبي حتى إذا كان الصباح وقبلت الشمس رمال الصحراء حططنا رحالنا ودعونا الرجلين للطعام معنا، فتعلل الأب قائلاً وهو ينتحي :

- إن ابني مريض لا يأكل كل شئ فدعاني أطعمه مما سمح الطبيب! فسكت أبي وقال لي ونحن نطعم:

- ولدي.. إن شيئاً غامضاً يجثم على صدري، وأزيدك علما أن ناقتي قد ساخت أخفافها في الرمل... وهو نذير... أمرٍ مشؤوم..

وثب إلى فكري منظر البارحة : الفتى الملثم الصامت، صوته الحنون الناعم، جمال عينيه السود، انتحاؤه حين الصباح مع أبيه ناحية... حتى إذا مالت الشمس دعوناهما فلبيا دعاءنا وركبنا مطايانا ومضينا... لقد عاد صاحبي إلى جنبي.

وهبطت الشمس إلى المغيب وتسللت أشعة منها إلى عين صاحبي، فقبلت أهدُبَهُ الوُطْف، ثم بدأت تغيب في أحشاء الصحراء، ولكأنها - قبل أن تودعنا - ألقت علينا وشاحها الأسود، فلفنا في سواده الرفيق، وأحسست أن نظراتي لا ترتد عن وجه صاحبي الملثم، وتمنيت لو يلقي لثامه كما ألقت

الشمس وشاحها.. ولا أدري أي خاطر طاف بي حتى اقتربت منه بناقتي ورفعت يدي، فنزعت اللثام عن وجهه فصعقت وبقيت يدي معلقة بلثامه في الهواء، إنه لم يكن ولداً، لكنها بانت فتاة غضة بضة، لونها خمر، وخصلاتها السود تلعب على نحرها العاجي، خدها ورد، شفتها الصغيرة العليا نائمة على أختها الصغرى في أمن سرمدي وادع، وعقلت المفاجأة لساني، ثم أبت إلى عقلي فأرسلت من يدي لثامها وسألتها:

- لماذا تزييت بزي الفتيان؟...

قالت وهي تحدق في عيني:

- لأتحاشى فضول الفتيان.. أمثالك...

فعلمت أنني قد أذنبتُ، وسألتها لأعرف رأيها فيّ:

- أحانقة أنت؟

- كلا!

- أراضية عني إذن!

- كلا!...

ومشينا شطراً من الليل ونحن صموت، ثم قبضتْ يدي بيدها وهي تطل في عينيّ

- لن يدري أبوك عما رأيت...؟

فقلت وأنا مشلول الإرادة:

- أجل..!

وفجأة علا صوت أبي صاخباً مع أبيها فتلثمتْ، وارتد الرجلان، فوقفنا جميعاً..

قال أبي في هياج عصبي:

- والله لن أتقدم خطوة، سنبيت هنا ونعود الصبح من حيث أتينا.. إنني لأعرف دروب هذه الصحراء، كما أعرف خطوط كفي، ولقد مررت بهذه المفاوز آلافاً، فما بالي الآن أضل ؟ إنني والله إما أن يكون قد مسني الخبل أو أن يكون ممن معنا سيء النية، فاسد الطوية، فإنها المفازة التي لا يهتدي فيها إلا المؤمنون، ولقد ضللت على طول خبرتي بها، وإنني لا أدري في أي متاهة نحن ماشون، إنني لا أتبين فيها الورد ولا الصدر في هذه المهامه والبيد.. فوالله لن أخطو خطوة حتى أعلم أين أنا... والصباح رباح...

وجاشت نفسي وأرت أن أبوح لأبي بما يوقر صدري، ولكن عينين ساحرتين من وراء اللثام استولتا على إرادتي، فإذا بي أقول لأبي:

- أبي... أخالك مجهداً فنحن على الطريق السوي...

وكأن كلماتي لم تصل إلى مسمع أبي، فبرك ناقته فتبعناه واجمين... ومال أبي على رحله، وما أسرع أن نام وغط غطيط البكر... أما الغريب وابنته فقد انتحيا -

كعادتهما - ناحية وتحدثا مليا، وأنا أراهما على ضوء القمر وهو في اكتماله، ثم توسد الأب كومة من زمال وأظنه نام، أما البنت فبارحته إليّ، فلما اقتربت مني أشارت أن اتبعني، فتبعتها كالمأخوذ وكأن خطامي في يدها تقودني حيث تشاء، ومضت قدماً، وضوء القمر يفصح لي عن قدمها السمهري وشعرها الحفال الجامح على ظهرها، وعن خطوها المتزن الوئيد، وكأنها لم تخلق إلا ملكة، ولم يخلق رعاياها المعاميد إلا ليمشوا خلفها في صمت وسكون، وفجأة دارت على أعقابها واستقبلتني، وارتمى ضوء القمر على وجهها الفتان وصدرها العتي، وذراعيها العبلاوين، وتلصص إليّ جسمها البض خلال ثوبها الوردي ليرتوي من جسدها رياً لا يظمأ بعده أبداً... قالت: أقبل، فاقتربت في ذلة الأسير، فلما وقفت أمامها رفعت يدها اليمنى، ووضعتها على كتفي، فأقبلت علي سحب من شذى عطري، فذابت كل إرادتي وارتفعت يداي للضم، ولكنها - في لمح الخاطر - سلت الخنجر من منطقتي وقالت:

- قف... فإن لجسدي لثمنا...

قلت كالمسحور:

- وما هو...؟

- أن تغرز هذا الخنجر..

- في صدر من؟

- في صدر أبيك الشيخ، وسأكون لك بعدها أبد الدهر..

قلت كالذاهل:

- في صدر أبي ؟ ... ما أفدحه من ثمن ! ...

وكدت أن أبرأ من سحرها.. ولكنها اقتربت حتى خالطت أنفاسها أنفاسي وهمست في أذني:

- سأكون لك أبد الدهر..

وأمسكتني خنجري في يمناي، ولست أدري كيف وقفت على أبي ! وهو نائم كالحمل الوادع، وعلوته بالخنجر، ولكنَّ قدميَّ خانتاني فدارت بي الأرض وسقطت، وصحا أبي وهو يقول:

- ولدي... ولدي... أأصابك الأرق فلم تنم... أمريضٌ أنت... ما هذا الخنجر المسلول بيدك؟ فصحت جزعاً نادماً وقد عاد إليَّ رشدي:

- جئت لأغرز الخنجر في صدرك، فقد سحرتني هذه الأفعى، وإنها لمرأةٌ في ثياب رجل لا أظنها بها خير... ولكن ها أنا أغرزه في صدري... جزاءاً وفاقاً...

وأهويت به على صدري، لكنَّ أبي ناله من يدي قبل أن يقضي عليَّ ونهض وهو يهدر كالبعير:

- ويلكما... أيها الكلبان... لقد صدق فيكما حدسي

وظني... والله لأصبغنَّ الرمال بدمائكما النجسة.. قبل أن تبلغا ما تريدان...

وانقض على الرجل الملتحي كالصقر ولكنه شعر به فصوب إليه مسدساً، وأرداه برصاصتين وهو يقول:

- لتنهش جثتك الجوارح والسباع... فأهويت على أبي أقبله كالمجنون وقال وهو يقضي:

- أحمد الله... يا بني ... على أن قدر هلكي قبل أن تصل بي قدماي إلى حيث يزمعان، ولكتب عليّ عار الأبد، وحق عليّ غضب الله والناس... وكنت ولم أزل على جثة أبي ثاوياً، أمزج دمعي بدمه.

وقلت لنفسي، إنها لفرصة مؤاتية لأكفر فيها عما سبق، فوالله لأضلنهم ضلالاً كبيراً... ولأمت معهما عطشان صادياً، فما في الحياة من بعد أبي - والله - خيراً..

ومضينا... وقد داخلت اليهوديين من أمري ريب وشكوك وأسلكتهما سبيلاً في الصحراء لو مشيا فيه دهرهما ما عادا منه أبداً...

وشربت حرور الصحراء وسمومها، آخر قطرة من مائهما، وبدأت الصحراء تتأثر فقد جفت حلوقهما، وحالت أوانهما، وانبهرت أنفاسهما، وودا لو أنَّ لهما بما يملكان من مال جرعة ماء... ولكن هيهات... ونحر اليهودي إحدى الناقتين، وتعلل

هو وابنته بما في بطنها من ماء ، وبعد يوم آخر عقر ناقتي وكنت لا أزال مكتوفاً كتفاً، لا أستطيع معه بسطاً ولا قبضاً ، فأقعدني على راحلة أمامه، وأردف ابنته خلفه، ولكن الصحراء لايرتوي لها صدى ولا ينقطع لها عطش أبد الدهر... ويبست أطراف الرجل وابنته، وازرق وجهاهما ، وتدلى لساناهما ، وسألاني عن الماء فقلت لهما إنه لقريب وما هو بالقريب...

ولقد أحسست بالعطش يفري أحشائي وما كان لي من أمل إلا أن أموت وأشهد موتهما قبلي وأصاب الرجل وابنه ضعف وتخاذل وإعياء، فانحدرا عن الناقة في بحار من رمال لا شجر فيها ولا حجر، فأقبل الرجل على الناقة الأخيرة فعقرها ولم يسقياني من مائها شيئاً، فقد فهما أنني أضللتهما ضلالاً لن يهتديا معه أبداً...، أقبل الليل وأحشائي تتقطع، وانقضى الليل، فرأيت الرجل وابنته وقد تقوست منهما الأيدي والأرجل وتكوم كل واحد على نفسه كالحية، وكنت لم أزل رابضاً في مكاني، حتى تلاقت عيناي بعيني الرجل الملتحي، فقرأت فيهما آيات الموت، وبدأ الحنق يشبح أطراف الرجل، ثم إذا به كالكلب العقور ولأسنانه هريش يسمع وزعق:

- لقد قتلتنا أيها النذل السافل.. فلأقتلنك قبل أن ألفظ أنفاسي..

وصوب المسدس إليَّ فندحرجت كالكرة لأتفادى رصاصة، ولكن رصاصتين أصابت إحداهما يدي اليسرى، ومرت الأخرى

على قيدي فمزقته، وسقط الرجل بعينه صريعاً، وتقلبت الأفعى الحسناء يميناً وشمالاً ثم فاضت نفسها، أما أنا فألفيتُني طليقاً، ولكن كيف الخروج من فم الأسد وقد دخلته عن قصد ورضا؟ وبدأت أمشي حتى كلت قدماي وأيقنت الموت فسقطت على الأرض فاقداً رشدي وصوابي، ولم أفتح عيني إلا بعد أيام فقد مرَّ بي بدو من هذا البلد، فحملوني إليه فآليت... ليعذبنني الصبية والأطفال وليرجمني بالحجارة والحصى حتى أقضي كفارة عما سبق.. وها أنا أموت بين يديك فاستغفر الله لي... وانتفضَ انتفاضةً أسلم فيها روحه لله....

المجنون(*)

كان صلاح الدين يتمنى أن يكون واحداً من أولئك الذين حظوا بالتعليم العالي في خارج البلاد، بيد أن هذه الأمنية تحطمت على إرادة أبيه التي أبت إلا أن يكون رجلاً من رجال الدين، صلاح الدين إن كان قد شمر عن ساعد الجد. فدرس وثقف وتعلم إلا أنه لم يصبح في يوم من الأيام رجلاً من رجال الدين أو الدنيا البارزين، وتوفي والده بعد حين فورث عنه ثروة ليست بالكبيرة ولا هي بالصغيرة، تعصمه عن الفقر والعوز ولكنها لا تحقق أحلامه العراض الفساح، فقد كان طموحاً كأشد ما يكون الطموح، كان يريد أن يكون المجلّي في كل ميدان، في ميدان الثروة والجاه، في ميدان الجمال والكمال، كان لا يتعلق من الأماني إلا بقممها، ومع ذلك فصلاح الدين لم يكن بالشخص الذي تنبو عن وجهه الأنظار لدمامته، ولم يكن من قلة المال بحيث لا يفي هذا المال بحاجاته ولوازمه،

*) المنهل - المجلد 11 ج 2 سنة 1370هـ.

ولا من ضآلة الجاه بين الناس بحيث يكون في نظرهم دون ما يستحق من هذا الجاه، ولا من الجهل وقلة المعرفة بحيث يكون أدنى منزلة من أولئك الذين درسوا في الكليات والجامعات، ولم يكن صلاح الدين بالأخرق الذي يدلّ بما ليس فيه، أو ينسب إلى نفسه من الفضائل الكريمة والمزايا الحسان ما ليس في نفسه، أو أن يسلب الناس ما فيهم من خلائق رضية، أو أن ينفس على الناس ما نالوه في شتى ميادين الحياة من بروز ونجاح، وما كان مقتصراً في اجتماعه بالناس على طائفة دون أخرى أو على فئة دون فئة، فقد كان يجد في كل شخص مهما كبر أو صغر ناحيةً من نواحي التقدير، وجانباً من جوانب الإعجاب، ودنيا حافلة من القوة الإنسانية والضعف الإنساني؛ وكم ليم في مخالطته للناس أجمعين دون جماعة وجماعة، بيد أن هذا اللوم لم يكن ليزيده إلا إيماناً برأيه هذا وتمسكاً به..

وما كان يعاب على صلاح الدين شيء سوى ما كان يرى أنه مازال يدور في السفح الأدنى من أمانيه المتطاولة، وأنه لم ينل إلا أقل من القليل مما هو جدير به من النجاح في هذه الحياة، وقد كان هذا الضعف ينبوعاً خالداً لعطف الناس عليه وحبهم المتجدد له..

كان صلاح الدين يعنو للجمال في كل شيء، كان يعجب بالجسم الجميل، بالقامة الهيفاء والشعور المرسلة، باللون الخمري، بالخدود الملتهبة، والشفاه الظمأى والعيون الصحاح

المراض، بالصدور النواهد؛ بالأذرع العبلاوات والأكف الرقيقة والأصابع المستدقة، والأظافر المقلمة الحمراء، بالأحشاء الضامرة، بالخصور النواحل والأقدام المرمرية، كان يعجب بجمال الروح من وراء جمال الجسد، وبجمال الأخلاق خلف تناسب الأعضاء وتناسقها، كان يود لو يجتمع له البروز في كل ميدان من الميادين مع جمال الجسد وحسن الطلعة، وصفاء النفس وكمال الروح...

وكان هذا الحلم يراود صلاح الدين حين يمسي وحين يصبح، وحين يخلو إلى نفسه في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار، وما كان صلاح الدين بقادر على أن يبوح بحلمه الشهي هذا إلى أحد من أصدقائه ومعارفه، فقد كان الرجل شديد الحساسية، شديد الفراق من أن ينسب إلى الحماقة والجنون، وكان يعلم أن هذا الحلم العذب الذي يراوده ليل نهارَ لن يتحقق في يوم من الأيام، فلن تصير عيونه الغائرة عيوناً كحيلة نجلاء ولن تطول قامته المتقاصرة، فيصبح في طول العماليق، ولكنه مع هذا كان يشعر أن هذا الحلم ليس حلماً فحسب! إنما هو رغبة طائشة عارمة تزيد ضراوتها مر الليالي والأيام... وخشي صلاح الدين أن لا تكون هذه الرغبة الجامحة نوعاً من أنواع الاختبال والجنون... وأراد أن يتغلب عليها بصوت العقل والمنطق، ولكنها ما فتئت تكتسح أمامها كل عقل ومنطق...

وكان صلاح الدين يجود صنع الخواتم من فضة وذهب ويكنزها، حتى إذا أقبل الحجيج من كل حدب وصوب: أخرجها إلى السوق، فتنفق لجودتها في أيام قلائل... وما كان يمتهن صنع الخواتم إلا إزجاء لأوقات الفراغ، وسداً للساعات الطوال التي تبهظه بالوساوس والأفكار وتثقله بالأماني المحمومة والأحلام الطائشة...

وأقبل رمضان ذلك العام بلافح حره وشديد فيحه ولاذع سَمُومه، وكان صلاح الدين كعادة الناس أجمعين يخرج بعد صلاة التراويح إلى السوق ليتنقل من دكان إلى دكان ومن حديث إلى حديث، فإذا أوشك الليل أن ينتصف أو كاد، ذهب إلى دار الصديق الذي قرر أن يجتمع الصحب والخلان لديه في تلك الليلة، فقضى معهم بقية ليله في لهو وسمر حتى إذا حمل النسيم الندي أذان الفجر (الأول) إلى أذنيه نهض منصرفاً إلى داره. فتناول ما استطاب من السحور وقام مصلياً ثم اضطجع فأغفى... بيد أنه كان يحتار كيف يملأ ساعات نهاره الطويلة بالتسلية البريئة، ورأى بعد إمعان فكر أن يجعل سمير نهاره كتاباً... كتاباً خفيفاً هيناً لا يكلفه شططاً في القراءة والمطالعة.. وخرج إلى صديق له كتبي يعرفه.. فوقف عليه وأدار بصره في رفوف كتبه صاعداً وهابطاً.. واختار كتاب ألف ليلة وليلة بأجزائه الأربعة . وحين آب صلاح الدين إلى داره دهش لاختياره كتاب ألف ليلة وليلة دون غيره من

الكتب.. فعهده بهذا الكتاب أيام الصبا.. كان يقرأ فيه كثيراً وكان يفضله على غيره.. لأن فيه من القصص ما يشوق، ومن الأدب السافر ما يروق، ثم انقطعت صلته بهذا الكتاب سوى ظلال له باهتة وصور له زاهية...

ووفق صلاح الدين في سد الفراغ الذي كان يخشاه وكان الكتاب - بحق - سميره المفضل طوال أيام رمضان.

وولى رمضان وأقبل العيد.. وفي ليلة العيد عمد صلاح الدين إلى غرفته التي اتخذها موضعاً لصنع الخواتم.. فأبعد ما كان في جانب من الغرفة خزانة ذوات أدراج.. فتح أكثرها إلا درجين مهجورين في أسفل الخزانة، لم تمتد إليهما يد صلاح الدين منذ سنتين.. ولم يكن بداخلهما شيء ذو بال.. ووضع صلاح الدين يده على أولهما بدافع الفضول والاستطلاع فسحبه على مهل، فلم يلق بداخله سوى الغبار المتراكم؛ ثم مد يده إلى الدرج الآخر فسحبه أيضاً فوجد بين الغبار المتراكم خواتم فضة علاها الصدأ فاسودت.. وتذكر صلاح الدين أن هذه الخواتم هي أول ما صنع... وأنه صنع أكثرها على مقاس يده، وداخله سرور غامر حين قاس عمله البدائي الفج، قال: كيف يبدأ المرء أول ما يبدأ عملاً معوجاً ناقصاً، ثم لم يزل يهذبه ويصلح من نقصه حتى يضحي وكأن لم يكن معوجاً بالأمس...

وأهابت به نفسه المتهللة أن يجرب خواتمه العتيدة على أصابعه واحدة واحد،ة فامتدت يده اليمنى إلى الخواتم

المهجورة.. منتقياً من بينها خاتماً، ثم رفعه وأدخله في خنصره الأيسر.. فألفى أطرافه تحددت من الصدأ، فكاد يجرح خنصره، فنزعه وألقاه، ثم تناول ثانياً وثالثاً ورابعاً، وردها جميعاً إلى الدرج المهجور، وهمَّ بغلقه لو لم يلمح في نهايته خاتماً ليس كخواتمه التي كان يصنعها، فدهش لوجود هذا الخاتم بين خواتمه العتيقة، وامتدت إليه يده اليمنى مرة أخرى تعبث به في دهش وعجب، ليس هذا الخاتم كالخواتم الأُخَر.. ما هو بفضة ولا ذهب ، ولا أي نوع من أنواع المعادن التي يعرفها بحكم مهنته... خاتم أخضر... إنه خاتم أخضر... ليس ياقوتاً ولا زمرداً ولا شيئاً شبيهاً بذلك... فأعلاه في يده اليسرى، وما كاد يفعل حتى اختفت غرفته الحقيرة في لمحة البصر بخواتمها الفضية والذهبية وفراشها الرث البالي ورائحتها الرطبة الندية، وألفى نفسه في غرفة واسعة الأرجاء، تفرش أرضها البسط الإيرانية الثمينة، وتناثرت فوقها أرائك وزرابي ما قط عينه رأت ولا أذنه سمعت، ورأى في صدر المكان منضدة نفيسة يجلس وراءها شخص في العقد الرابع من عمره حسن الطلعة، جميل الصورة. وقد ارتفعت من خلفها مئات الرفوف تكتظ بآلاف من محافظ الورق.. وجال صلاح الدين ببصره فيما أمامه من مناظر المكتب المسحور وهو يفرك عينه بيده، وقد ظن أنه يرى ما يراه النائم في أحلامه.. أو أنه قد أغمي عليه وهو لا يدري.. أو قد تكون تناول مادة مخدرة وهو

لا يعلم.. أو قد تكون أحلامه في أن يصبح مثلاً أعلى قد جرته إلى مهاوي الجنون والاختبال.. وأراد أن يختبر نفسه أهو لم يزل متمتعاً بعقله.. أم هو قد ودع هذا العقل؟..

ولم يجد أمامه من حل لهذه المعضلة سوى أن يتقدم إلى هذا الرجل المشغول.. بأكداس أوراقه ويتحقق من وجوده.. أهو إنسان بعصب ودم ولحم، يتكلم ويفكر ويرضى ويغضب!! أم هو دمية بعينين زرقاوين ويدين تسترهما آلات موضوعة في باطنه؟!..

أم إنه لا هذا ولا ذاك، فهو حلم من الأحلام، أو هو كابوس تجسد؟..

وخطا صلاح الدين صوب المكتب ووضع يده المرتجفة مختبراً كنه هذا المكتب، فوجد أن شعوره باللمس لم يختلف في كثير أو قليل من لمسه لألواح الزجاج التي تلصق بالمكاتب في الألواح العادية، وأحدث اختباره لألواح الزجاج وهو جائش مضطرب ضجة أيقظت الرجل من غفوة أشغاله...

فأعلا رأسه قليلاً وقال متبسماً:

- مرحباً... أهذا أنت... تفضل... اتخذ هذا الكرسي لك مقعداً ريثما أفرغ...

وتحسس صلاح الدين الكرسي بيده، فلم يجده إلا كباقي الكراسي، فتيقن أن ما يراه حق ويقين.. وأن الرجل الجالس

أمامه ما هو إلا رجل من الناس ليس بكابوس ولا حلم... وأن عقله مازال بخير... إنما الحيرة التي تضنيه وتشقيه هي أنه كيف استحالت غرفته الحقيرة بحصيرها البالي وخواتمها الذهبية والفضية إلى هذه الغرفة التي لا تمل العين من النظر إلى رياشها الفخم وتحفها الغالية وبسطها الإيرانية الثمينة ومكتبها الأنيق، وهذا الرجل الذي كأنه يعرفني منذ زمن مديد. ؟

واستوى صلاح الدين في الكرسي ليطلق خياله من عقاله عله يوفق بين ما يراه بعينه وبلمسة بيده وبين ما يخالف قوانين هذا اللمس وقواعد هذه الرؤيا... وغاص صلاح الدين في الكرسي المريح كما غاصت أفكاره في خضم الحيرة اللجي.. وما عتم أن رفع الصديق المجهول رأسه وهو يقول:

- إنني آسف يا سيدي، فقد تغيرت أوضاع هذا العصر وتقاليده ؛ فقد كان المفروض سابقاً.. أن أكون لديك في التو بدل أن تتكلف أنت الحضور إلى مكتبي... بنفسك..

ولكن صلاح الدين لم يفهم من الرجل الذي أمامه؟.. وكيف أتى صلاح الدين إلى مكتبه؟... وما الصلة التي بينه وبين هذا الرجل الذي لم يره قط؟ فتكلم صلاح الدين:

- أريد أن أوجه لك عدة أسئلة، فهل تتكرم بالإجابة عنها ؟

فقال الرجل المجهول والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- سيدي يسرني أن أجيب على أسئلتك جميعها لو فرقت بعضها عن بعض وسألتني سؤالاً... سؤالاً...

ورأى صلاح الدين أن خير ما ينشله من هذه الحيرة المضنية أن ينزل عند رغبته ويسأله سؤالا إثر سؤال؛ واستجمع صلاح الدين شتات ذهنه المكدود وباداه بأهم سوال يشغله:

- من تكون... أنت؟..

وكأنما فوجئ الرجل المجهول بهذا السؤال بيد أنه ابتسم وقال:

- أنا... أنا... رجل من الجن...

وما كان صلاح الدين يستبعد أن يكون جوابه بعيداً عن هذا فقال:

- لتكن من تكون... وما صلتي برجال من الجن؟..

فقال الرجل ولم تزل الابتسامة على شفتيه:

- إنها لأوثق صلة...

- أنا لم أفهم بعد ما تعني...

- إن ما أعنيه سيدي هو واضح جداً... ففي خنصر يدك اليسرى خاتم أخضر... وإنني لعبد من يلبس هذا الخاتم وطوع أمره...

وصاح صلاح الدين وكأنما أدرك الحقيقة:

- إذا فأنت جني تابع لهذا الخاتم الأخضر الذي أملكه وهذا يشبه ما كنا نقرأ في أساطير ألف ليلة وليلة...

فأجاب الجني مبتسماً:

- الأمر كما ذكرت سيدي مع بعض الفوارق، فالتابع الجني سابقاً كان يحضر حين يطلب... قبل أن يرتد إلى صاحبه الطرف... أما الآن - فكما رأى سيدي - الأمر بالعكس تماماً، والسبب في ذلك أن الزملاء السابقين كان كل واحد منهم وقفاً على شخص واحد فقط... أما جني القرن العشرين فعليه أن يلبي طلبات آلاف من عملائه الكرام، وقد يطلبونه في زمن واحد، فهناك على الأقل آلاف ممن يملكون خاتماً أخضر كخاتم سيدي هذا... وإن التوفيق بين ما يطلبون ووقتي المحدود بالدقائق والثواني عسير حقاً... فأرجو أن يبوح سيدي عن رغبته سريعاً... لأكون عند حسن ظنه... في أول فرصة...

ودار فكر صلاح الدين دورة سريعة، واعتقد أن الله سبحانه وتعالى ربما أجاب دعاءه في ليلة من ليالي رمضان المبارك.. وإنها ولا ريب فرصة العمر فيطلب فيها ما كان يطمع إليه، ودار رأسه مرة أخرى من غير تفكير... ماذا يطلب الآن... وهو لم يستحضر لهذا الطلب من قبل؟؟ ولو علم بأمره هذا لأحضر معه قائمة بالآمال المتمناة والأحلام المشتهاة،

ولحققها له جني القرن العشرين في لحظات... وكأنما عرف الجني المحترم ما دار بفكر صاحبه فقال مستدركاً:

- سيدي... نسيت فارقاً واحداً بيني وبين زملائي الغابرين لم أذكره من قبل...

ولم يدع لصاحبه فرصة يسأل فيها عن هذا الفارق فقال مواصلا كلامه:

- أريد أن يكون سيدي على بينة من أمره... فإننا لا نستطيع أن نحقق لكل عميل من عملائنا أكثر من أمنية واحدة في حياته المديدة.. أعني أنه لسيدي أن يختار إحدى رغائبه، أحققها له على الفور...

انتظر سيدي... لديك ثلاث دقائق فقط لانتقاء إحدى الأماني المشتهاة ثلاث دقائق... أظن أن سيدي يملك ساعة في رسغه... ثلاث دقائق فحسب...

وهكذا لم يدع جني القرن العشرين للمرة الثانية فرصة لصاحبه المسكين يستعرض فيها أحلامه الدفينة وأمانيه المكبوتة، ويقارن بين إحداها والأخرى، وينتقي التي هو أشد ما يكون رغبة في تحقيقها، ثلاث دقائق فحسب...

ومرت الدقيقة الأولى وفكر صلاح الدين مشلول لا يعمل.. وبدأ تفكيره يظلع في الدقيقة الثانية.. يا لها من دقيقةٍ كأنها عمر طويل.. ودهر مديد.. وهو يريد أن يصل

فيها إلى حل.. مُرْضٍ.. وعقله يأبى إلا التعثر والتشتت.. وأعلن الجني بداية النهاية.. فها هي الدقيقة الأخيرة .. لك أن تختار فيها ما شئت، وإلا مرت فرصة العمر إلى الأبد... ولن تعود...

مر النصف الأول من الدقيقة الأخيرة صلاح الدين يفكر.. ماذا يختار المال.. الجاه.. العلم..

إن آخر ما يفكر فيه هو العلم.. إنه في الثواني الأخيرة من دقائقه الثلاث، لقد تذكر حلمه المراود.. حلمه القديم.. في أن يصبح أجمل شخص في الوجود.. صاح:

- أيها الجني.. أريد أن أكون أجمل شخص في الدنيا..

قال الجني وعلى فمه ابتسامته المعروفة:

- لك ذلك..!

ثم نهض الجني من مقعده وقال:

- يا صاح أدر ظهرك إلي..

ففعل صلاح الدين... ثم أضاف الجني:

- إلى الإمام سر...

فأطاع صلاح الدين من غير تردد، وكأنه جندي في ميدان التدريب.. وصاح الشيطان بلهجة الآمر:

- قف...

فوقف، ولم يخطر بباله قط أن يعصي صاحبه... وهو يملك الخاتم الأخضر، فقد كان جني القرن العشرين غير جني الأساطير... كان صلاح الدين يشعر أنه مسلوب الإرادة... عديمها... وما كان يرى أي غضاضة في أن يطيع أوامر الجني بحذافيرها... دون عرضها على العقل أو الوجدان أو الضمير... وقد فهم تماماً أنه تابعه وأسيره.. وصاح الجني آمراً أنظر أمامك:

- انظر... أمامك...

ورفع صلاح الدين أنظاره فرأى مرآة ضخمة تكاد تملأ الجدار المقابل لمكتب الجني، فرأى شخصاً أبيض طوالاً أقنى الأنف ، له لمة معطرة تداعب جبينه الخمري، رأى أكتافاً عراضاً، وجسداً مفتولاً يمتع العين ويسبي النظر، ولم يدر بخلد صلاح الدين أن المرآة تعكس الصورة الحقيقية، إلا حينما رأى قامته المتطاولة.. وأكتافه العراض وبدنه الرياضي.. فأيقن أنه قد أصبح أجمل رجل في عصره..

وصاح الجني:

- والآن عد إلى بلدك...

وقبل أن يرتد إلى صلاح الدين الطرف وجد نفسه في غرفته الحقيرة، بخزانتها القديمة، وخواتمها المهجورة، وحصيرها البالي ورائحتها الرطبة...

هاهو أخيراً قد عاد إلى غرفته المعهودة، فجلس القرفصاء في ناحية منها وأراح مرفقه على ركبته، ووضع ذقنه على كفه مفكراً..

أين كنت...؟ وماذا فعلت...؟ أكنت في حلم؟... أأغمي علي من تعب؟... أهذه ما زالت ليلة العيد السعيد...؟ أم ما رأيته كان كابوس مخدر؟... أم انحدرت إلى مهاوي الجنون...؟

ولما لم يجد لأسئلته المتتالية جواباً، نهض من موضعه وفتح النافذة الوحيدة في غرفته الرطيبة، فداعبت أنسام السحر الباردة وجهه المحموم، ورأى من بعد الثريات الكهربائية تتألق على منارة المسجد الرئيسية، كأنها عقد لؤلؤ على جيد غانية... وسمع أصوات الصبيان في الأزقة والحارات... بكرة عيد... بكرة عيد...

فعلم أنه مازالت ليلة العيد السعيد... وأن عقله مازال بخير.. وأن ما رآه كان بحران حمى انتابته وهو لا يدري، فشكر الله على أن رد عليه صحته وعافيته وأنه سيشارك إخوته وصحبه أيام العيد ولياليه... وسيقص على مسامعهم ما رآه في جيشان حماه... فيصدقه أناس ويكذبه آخرون...

فخف عن نفسه ما بها من هم وقلق، ففكر في أن يذهب إلى أمه وأخته ويزف إليهما تهنئة العيد المبارك، وخرج من

غرفته ورقى الدرجات القلائل التي تفصله عن أهله، وأقبل على أمه وأخته وهما مشغولتان بكي أغطية الحشيات والمساند، وفتيلة السراج المعلق تنثر نورها الهين اللطيف في أرجاء الغرفة، و ما كاد صلاح الدين يلج باب الغرفة حتى قال كعادته:

- السلام عليكم...

وما أن سمع صوت نفسه حتى خيل إليه نبرات صوته أصبحت أحسن من ذي قبل، فعزا ذلك إلى الحمى التي زارته في تلك الليلة... بيد أنه ما كاد يخطو داخل الوصيد خطوات قلائل حتى ارتفعت أنظار الأم والأخت إلى صلاح الدين تستطلعان: من القادم، فقد آنستا صوتا غريبا غير صوت صلاح الدين ورأتا على ضوء المصباح الشاحب وجهاً غريباً لم تكن أنظارهما صافحت وجهاً مثله من قبل... فقد ظنتا في بادئ الأمر صلاح الدين وهو يصعد إلى غرفتهما في هدوء، وكأن الدار داره، والأهل أهله، وما آنستاه في صوته من نبرة غريبة رددناه إلى انشغالهما بالكي في تلك الليلة..

ولكنهما حينما رأتا شخصاً طُوالا لا يشبه صلاح الدين في قليل ولا كثير.. صعقتا من هول المفاجأة بادئ الأمر، ثم رفعتا عقيرتيهما تصيحان:

حرامي... حرامي... ألحقوا يا ناس!.. وفهم صلاح الدين

أن حكاية الجني مازالت تلاحقه وتطارده... وأنه قد فقد سماته الأصلية التي يعرف بها بين أهله وصحبه ومواطنيه وبني جلدته، وأنه باع واشترى... باع واشترى... باع حب عشيرته وحدبهم عليه، حنان أمه وأخته الذي لا يعدله حنان... ذلك الحنان الودود الصافي الذي رضع منه صغيراً وفطم عنه كبيراً... فقد كان يكفي أن يكون عند أمه وأخته صلاح الدين قبح أو جمل، حقر أو كبر، اغتنى أو افتقر ليكون في قلبيهما ابناً... وأخاً...

واشترى - وبئس ما اشترى - اشترى هذه القامة الفارعة والوجه الغرانق والعيون النحل... والتي لا تساوي شيئاً، إن لم يكن لها رصيد من مال وجاه ومنزلة مرموقة وسمعة طيبة حسنة...

وغاص صلاح الدين في لجج هذه الأفكار ولكأنما سمر في مكانه، أو لكأنه مشلول لا يستطيع حراكا، والمرأتان تمعنان في الصراخ والزعيق...

- ألحقوا يا ناس... الحرامي... الحرامي...

ورأى صلاح الدين أنه من المستحيل أن يفهم أهله أنه ابنهم الذي عاشروه دهراً طويلاً... وقد فقد كل شارة أو سمة تدل على أنه صلاح الدين وليس بشخص خلافه.. وبدأ الدم يتدفق إلى رأسه... ولاح إلى رأسه مصيره المؤسي... فهو في

عرف الناس والعدالة... مجرم اقتحم داراً لا تحل لغير أهلها... ليسرق أو يسلب أو يفجر... وسيلقى جزاءه المحتوم فيزج في السجن وربما جلد بالسياط على مرأى من الناس ومسمع...

فماذا يجديه جماله الفتان.. وقده السحري...

لقدم حرم من أهله وصحبه وإخوته.. وحيل بينه وبين أمواله وأملاكه .. لقد أصبح منبوذاً... طريد العدالة والمجتمع.. وربما اتهم بقتل صلاح الدين المفقود.. فيقتل.. جزاء ما قدمت يداه..

لاح هذا الشبح المرعب لناظريه، فاتقدت النيران في دمه المشبوب ، وأظلمت الدنيا في عينيه، وتراقصت أشباح القدر المهول في مصيره، في غده المجهول.. وأيقن التلف والهلاك.. فثارت في نفسه الحطمة غرائز أهل الغاب.. وأمسى في لحظة من اللحظات ذئباً من الذئاب.. مكشراً عن أنيابه، لا هم له في الدنيا سوى الدفاع عن نفسه وحياته..

خيل إليه كأن لسان السراج المعلق على الجدار لسان ذلك الجني الساخر المتمرد يهزأ من أطماعه المتطاولة وأحلامه الطائشة... ويهزأ بعد ذلك من ضعفه الإنساني..

ونظر إلى أمه وأخته تصيحان ، فخيل إليه أنه يرى جنيتين قذرتين تلتويان وتدوران، وتريدان القضاء على البقية

الباقية من حياته.. فأهوى إليهما بجسده العملاق، وأمسكهما من ناصيتيهما وكأنما هما دميتان من طين في يديه الضاريتين..

وبدأ يدق رأسيهما بعضهما ببعض.. حتى اختلط وجهاهما.. وامتزج دماهما السخين على صدريهما الصاعدين الهابطين.. وأحس بالدم اللزج يتدفق على رسغيه.. فترك جثتيهما تهويان.. وهو يضحك ضحكاً عالياً:

- يا لكما من حيتين قذرتين.. إن هذا لجزاؤكما الوفاق.. فذوقا ما كنتما تفعلان..

وكان الناس والجيران قد أقبلوا على صراخ المرأتين وزعيقهما وبأيديهم العصي والخناجر.. فاستقبلهم ضاحكاً وهو يقول:

- أوه.. أحسنتم.. لقد وصلتم في الوقت المناسب أبعدوا عن وجهي هاتين الحشرتين..

ثم ارتمى على الأرض واستوى جالساً عليهما وأخرج يديه للناس وهو يريهم الدم المطلول عليهما:

انظروا ما أدفأ دم هاتين الحيتين.

● ملاحظ:

وبعد الفراغ من قراءة هذه القصص، لعلك واصل مثلي إلى تكوين الملاحظ التالية، المحددة لملامح هذه القصص:

1 - إن بعضها متخيل، مستمد من روح الأساطير، نتيجة قراءاته، وبعضها واقعي مستمد من مشاهداته ومعايناته.

2 - إنها تتميز بطابع المحلية إلى حد كبير، فلها سماتها الحجازية، وملامحها القروية والبدوية، والمدينية، فالحرة والتراويح، والبقيع، وباب السلام، وغيرها من المواقع، كلها سمات للفضاء المكاني لهذه القصص.

3 - إنها تتسم بشيء من الطول الذي يسلك معظمها في عداد القصة الطويلة، ويخرج بها عن نطاق الأقصوصة.

4 - إنها جميعاً تعالج أفكاراً معينة، تفيد المجتمع، مما يجعلنا نميل إلى عدِّها من القصص الاجتماعية.

5 - تحدث فيها كثيراً عن العقل والجنون. ولقد كان الأفغاني عاقلاً مفكراً، أديباً، أريباً، ولكنه مات مصاباً في عقله، مختلط الفكر، وقد انطفأت كثير من قناديل عقله، ليؤكد العلاقة المدّعاة بين العبقرية والجنون. فرحم الله أديبانا الأفغاني رائداً من رواد المقالة والترجمة والقصة في بلدنا الحبيب.!

هوامش الكتاب

(1) العدد 255 تاريخ 1356/3/23هـ.
(2) تين (دائرة المعارف البريطانية).
(3) زولا (دائرة المعارف البريطانية).
(4) قصة لزولا ترجمها إدوارد فيزيتلي إلى الإنجليزية.
(5) مقدمة (من حياة حائر بائر) ترجمة عبدالرحمن بدوي إلى العربية.
(6) ص 95.
(7) الكامل لابن الأثير (224/4).
(8) يقول البلاذري: إنما سميت هذه الجزيرة جزيرة الياقوت لحسن وجوه نسائها، لكن الصواب أن اسمها (سرانديب) كما ذكرها فرشته.
(9) فتوح البلدان/ ص 423.
(10) آيينه حقيقة نما/ ص 75.
(11) المصدر السابق ص 76.
(12) تاريخ ابن خلدون (42/3).
(13) الكامل لابن الأثير (147/4).
(14) آينة حقيقة نما (72/1).
(15) تقدم ذكر محمد العلافي في أسباب الحملة.
(16) تسمى الآن كراتشي.
(17) صوابه بتّ.
(18) ذكرت جميع الكتب الواردة على محمد من الحجاج في تاريخ السند للمعصومي لكننا أغضينا النظر عنها خوفاً من التطويل والإسهاب كما أني أشك في صحتها.

(19) هؤلاء قوم أسلموا وهاجروا إلى الجزيرة وسنفرد لهم بحثاً خاصاً إن شاء الله.

(20) هذه عادة في ملوك الهند منذ قديم الزمن، وهي أن تحرق الملكة نفسها ثم جميع ما تملك إذا قتل زوجها أو يئست من نجاحه، ويسمونها (جوهر) تاريخ الهند ص 83.

(21) الحق أن محمداً مات ضحية العداوة بين الحجاج وسليمان، لأن الأول أشار على عبدالملك أن يعهد بالملك بعده إلى ابنه الأكبر ويحرم سليمان، فحفظ الأخير العداوة له في قلبه مدة غير قليلة من الزمن، ولما آل إليه الملك كان الحجاج قد توفي - كما دعا ربه - فانتقم من جميع أقربائه وأصدقائه حتى كتّابه وعملائه، وكان هذا الشاب الباسل أحد ضحاياه من دون أي ذنب أو وزر.

(22) المحاسن والمساوئ (83/1).

(23) كتاب التاج للجاحظ ص 24، 28، 37، 173.

(24) كتاب الكتاب الوزراء للجهشياري ص 3.

(25) الأغاني طبعة بولاق (16/76).

(26) الطبري الطبعة الجديدة (3/176).

(27) الطبري (186/3) وابن الأثير (214/2).

(28) فتوح البلدان ص 366.

(29) المرجع نفسه.

(30) المنهل: نسي الكاتب إيراد اسمه.

(31) تين (دائرة المعارف البريطانية).

(32) زولا (دائرة المعارف البريطانية).

(33) قصة لزولا ترجمها إدوارد فيزيتلي إلى الإنجليزية.

(34) مقدمة (من حياة حائر) ترجمة عبدالرحمن بدوي إلى العربية.

(35) يقصد الكاتب أن يقول: إن الذي يراه ببصره يظن أن له وجوداً في الأصل كما أنه يحسب أن نظراته ترسم له الحقيقة. (المترجم).



المحتوى

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة